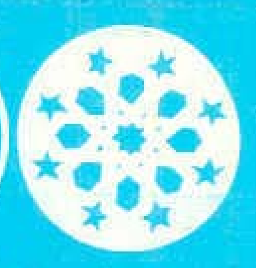




• شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. المغرب



العدد
231



ذو الحجة - محرم 1403-1404 / شتنبر - اكتوبر 1983.

الثمن : 5 دراهم




أصل الوجود

للشاعر الأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

يدعي كثيرمن علماء الطبيعة و الفلك ، والفلاسفة المحدثون ان أصل الوجود الكوني انفجار هائل THE BIGBANG نتج عن غازات كثيفة سابحة في الفراغ .

وهي نظرية مضحكة تفتقر الى كثير من الدعم المنطقي ، وتظهر بوضوح غرور هؤلاء العلماء بفكر هم المحدود ، وتطاولهم على صانعهم وصانع فكرهم ، وكونهم الذي يعيشو ن فيه ، وسائر الاكوان التي تبعد عن كوكبنا ببلايين القرون الضوئية ...

ويرد الشاعر بهذه الابيات على هذه الادعاءات التي جربت كل تفسير لوجود الكون الا التفسير المنطقي والمعقول ، وهو ارادة الله خالق الاكوان .

يقولون : « اصل الوجود انفجار ... عظيم ، وغاز كثيف ونار »

فمن اين جاء انفجارهمو ؟ ... ومن اين غازهمو والغبار ؟

امن عدم ؟ يا له منطق ... له كل عقل سليم يحار

يريدون انكار خالقهم .. ... لنبش المراد .. وبيس القرار

واقرب من « غازهم » للعقول ... اله عظيم به يستجار

يقول لما شاء : « كن فيكون » ... بحكمته كل شيء يدار

هو العقل .. لا عقل يشبهه ... تحير فيه العقول الكبار

وهل للدمى ان ترى صانعيها ... وانى لها في الوجود اختيار ؟



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات :
في المملكة المغربية : 55 درهما
في البلاد العربية : 67 درهما
في العـالـم : 77 درهما

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الربـاط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

هذا العدد

• • من الابحاث الهامة التي تضمنها هذا العدد (231) بحث للاستاذ الكبير السيد اكرم زعيتر عن مرحلة مهمة من مراحل الحركة الوطنية المغربية الملتحمة دائما بالعرش المغربي والمرتبطة ابدا بالعروبة والاسلام .

• ويتعلق الامر بالظهير البربري الذي كان ـ باختصار شديد ـ محاولة استعمارية صليبية لمحو الوجود العربي والاسلامي في معظم التراب الوطني ، وذلك من خلال تقسيم الشعب المغربي الى شطرين جمع بينهما الاسلام ووحدت بينهما لغة القرءان وآخت بينهما المعارك والملاحم للحفاظ على الوحدة الوطنية والسيادة الترابية والذاتية المغربية الواحدة الموحدة .

• • وهي مرحلة ترتبط في اذهاننا بجهاد احد اعلام الفكر في العصر الحديث الامير شكيب ارسلان .

• ويلتقي القارىء في هذا العدد مع مقال يفند مزاعـم أحد تلامذة الاستشراق والتغريب من خلال الدفاع عن الحقائـق التاريخية المتصلة بابرز مفكر اسلامي عرفه القـرن التاسع عشر وهو جمال الدين الافغاني .

• ويواصل الاستاذ الريسوني نشر الحلقات التمهيديـة لموضوعه الهام : (سيد قطب ومنهجه في التفسير) ، ونقرأ في حلقة هذا العدد مزيدا من المعلومات عن حياة المفكر الاسلامـي الكبير سيد قطب توطئة للدخول في الموضوع .

• ويلاحظ القارىء ان من موضوعات هذا العدد بحوث في النقد والادب . والمجلة تأخذ بهذا الاتجاه من زاوية التأصيـل للادب العربي الذي لا يتنكر لمقومات الفكـر العربـي الاسلامي . فالادب الذي ندعو له هو أدب الصحوة والرشد ، لا أدب الغفـوة والتيه ، وهو ادب الامة لا أدب خصومها الذين يكيدون لها كيدا . وهذا هو الفرق الاساسي بين مـا ننشره مـن مقـالات ودراسات أدبية ونقدية وبين ما ينشره غيرنا . الامر الـذي ينسجم مـع رسالة المجلة كما لا نحتاج ان نقول .

• • وللقارىء ، قبل هذا وبعده ان يحكم ما استقامت لـه اداة الحكـم ...

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر الإسلامي في عصر الهيمنة الصهيونية

●● تنعكس الظروف السياسية التي تمر بها الامة العربية والاسلامية على الفكر العربي الاسلامي بصورة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ارتباط الفكر بالواقع السياسي ارتباطا وثيقا لا سبيل الى الفكاك منه .

● وليس شك ان الواقع العربي الاسلامي في المرحلة الراهنة ليس مما يسر ويفرح له المؤمنون ، بعد ان بلغ التآمر الاستعماري على امتنا مدى بعيدا وانتهت اسرائيل والصهيونية العالمية الى فرض سياستها بالقوة والارهاب والاحتلال ، وباذكاء نار الفتنة والخلاف والشقاق والكيد المتبادل بين العرب والمسلمين ، وباضعاف شوكة الامة اضعافا شاملا كاسحا يكاد يفقدها القدرة على البقاء والثبات في موقعها الحضاري المتميز . وكل هذا يمتد اثره الى الفكر والثقافة والادب ، ومختلف مجالات الابداع الانساني . ويهمنا هنا الفكر العربي الاسلامي بصفة اساسية باعتباره مظهر حيوية الامة وانعكاسا لقدرتها على الفهم والتحليل والاستيعاب والتدبير والتحرك والاجتهاد واستخلاص الدروس والعبر والنتائج ، وبوصفه ايضا معيارا لسلامة الامة وعافيتها وصلاحيتها لان تقود نفسها في دروب الحياة ، ومقياسا لقدرتها على الصمود الذاتي في وجه المؤامرات والتحديات وضروب شتى من المكر والكيد .

إفتتاحية

●● ولقد اصاب الفكر العربي الاسلامي ضعف وفتـــور يكادان يبلغان به الى حافة الانهيار والسقوط ، حتى اصبح العجز والقصور طابعا مميزا لهذا الفكر ، وصار الجمود صفة لصيقة به ، فلم يعد فكرا حركيـــا اجتهاديا رائدا يعيش يومه ويستلهم امسه ويستشرف غده ، وانما انتهى به الامر الى السكون والهمود ، والاخلاد الى الواقع المثقـــل بالهزائـــم والانتكاسات والوقوف موقف السلبية .

● والفكر ان لم يتحرك في الاتجاه السليم سقط في هوة التبعية ، وصار فكرا تابعا فاقدا مقومات الابداع ، وشروط النبوغ ، وحوافز الحركة، واصبح بذلك مقودا بدل ان يكون قائدا ، وخاضعا للعوامـــل والضغـــوط الخارجية عوض ان يكون فوق العوامل الضاغطة ، منتصرا عليها ، متحكما فيها ، ومتجاوزا لها ، واضحى فكرا مغزوا بينما يجب ان يكون فكرا غازيا بحكم مكوناته ومقوماته ومؤهلاته ، وممسكا بزمام المبـــاداة والمبـــادرة والتصدي ، واقتحام مشكلات الحضارة ، واشكاليات الصراع الدولـــي ، وازمات الانسان المعاصر ، ومعممات التطور الفكري والعلمي والتكنولوجي البالغ السرعة . وتلك هي طبيعة الفكر العربي الاسلامي في احقاب ازدهاره وتالقه وتفوقه واشعاعه . وحينما فقد الفكر العربي الاسلامي هذه الخاصية المتفردة فقد مكانته في الساحة الدولية وانسحب من ميـــدان الحيـــاة المتدفقة ، الامر الذي كان ايذانا بتراجع العرب والمسلمين عن موقعهـــم الحضاري ودخولهم متاهات لا قبل لهم بها .

●● بيد ان الفكر العربي الاسلامي عرف بعض الانتعـــاش في مطالع هذا القرن بسبب بزوغ فجر اليقظة ، ثم ما لبث ان ازدهر ازدهارا ملموسا في العقود الاخيرة الى ان آذنت الصحوة الاسلامية بالظهور ليبدا رحلة العودة الى الوراء بحكم ما صاحب هذه الصحوة من مظاهر وارهاصات ليست من الاسلام في شيء ، مما امتد اثره الى العقل والوجدان وانعكس ذلك كله على الفكر اسوا ما يكون الانعكاس ، الامر الذي ادى بنا الى حالة من التردد والحيرة والارتباك واوشك ان ينتهي بالبعض منا الى ما يشبـــه اليـــاس .

● ولكن القضية التي لا لبس فيها ولا غموض ان الفكر العربـــي الاسلامي المعاصر يعيش في دائرة الهيمنة الصهيونية . وليس شرطا ان

يكون هذا الحصار تقليديا وان يتم بطريقة مباشرة او على يـد اسرائيل ، ذلك ان الصهيونية الدولية تمارس اساليب متنوعة بالغة الدقة والتخطيط والاعداد لاحتواء العقل العربي الاسلامي واخضاعه للفكر الاممي اليهـودي النزعة ، الصليبي الاتجاه ، الالحادي المنطلق .

●● ويحق لنا ان نقول ان الفكر العربي الاسلامي يقع الآن تحت تأثير الهيمنة الصهيونية الآخذة بخناق العالم والباسطة نفوذها على مجالات السياسة والحكم والتوجيه ، وميادين الاقتصاد والتنمية ، وحقول الفكـر والعلم والثقافة والادب والفن .

● ولعل أشد أنواع الغزو والحصار ما يتم بوسائل غيـر مباشرة ومن خلال قنوات نستبعد ان ياتي منها الخطر . ولذلك كان الحذر امـرا واجبا للمقاومة والمواجهة والحفاظ على الهوية المتميزة لفكرنـا العربـي الاسلامـي .

●● والقضية هنا مرتبطة ببذل المزيد من الجهود للتحرر مـن ضغوط الواقع والارتفاع فوق ذواتنا ومغالبة النفس من اجل الانعتاق من الاهواء والاغراض والنزعات التي تشدنا الى ان نسير في ركب التبعية .

● ولا شك ان هذا يتوقف أساسا على مدى استيعابنا لواقعنـا وللمحيط الذي نتحرك داخله والتزامنا بالمنهج وبالرؤية وبالمنطق والاداة التي لا تتعارض مع أصول عقيدتنا ومبادىء ديننا وخصائـص حضارتنـا ومميزات تاريخنا . وليس في ذلك كله ما يوصمنا بالعجـز وبالجمـود وبالتخلف عن ركب التطور . ذلك ان التطور الذي يتم على حساب مقوماتنا الروحية والفكرية والحضارية تنتفي منه قيمته ويتجرد من كل اعتبار .

●● والفكر العربي الاسلامي ، بخصائصه ، وبروحه ، وبطبيعته، قادر على اثبات ذاتيته وفرض وجوده الحق ، بالحق وبالعدل وبالمسؤولية والانضباط ، وبقدر أوفر من الرشد والسداد والوعي .

عبدالقادر الإدريسي

الرّسالة الملكيّة السّامية إلى حجّاجنا الميامين

جريا على العادة المتبعة في مثل هذه المناسبة الدينية وجه أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله رسالة سامية الى الحجاج المغاربة تضمنت توجيهات وارشادات للحاج المغربي . وقد ألقى الرسالة الملكية في الفوج الاول للحجاج بمطار النواصر بالدار البيضاء الاستاذ الهاشمي الفيلالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية في حفل هام حضره والي الدار البيضاء الكبرى السيد أحمد الفرازي وسفير المملكة العربية السعودية بالمغرب الشيخ علي ماجد القباني وعدد من كبار الشخصيات .

وفيما يلي نص الرسالة الملكية :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه حجاجنا الميامين :

فرض الله تبارك وتعالى الحج مرة في العمر ، وجعله أحد اركان الشريعة الاسلامية الغراء ، وأعمدة الدين الحنيف التي يقوم عليها بناء هذه الملة الخالدة ، حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام) .

وكما ورد في مختلف الشعائر الدينية آيات وأحاديث كان لهذه الشعيرة بالخصوص ، حظها الاوفر وقسطها الاكبر من ذلك حيث يقول الله تبارك وتعالى : ((ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)) ، وخاطب نبيه وخليله سيدنا ابراهيم عليه السلام قائلا : ((وأذن في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق)) ، وأوضح جل وعلا أهمية الحج الدنيوية والاخروية فقال : ((ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات)) .

وورد فيه من الترغيب الشيء الكثير حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة) .

وقد ابى النبي صلى الله عليه وسلم الا ان يحج بالناس ليأخذوا عنه اركان هذه الفريضة وواجباتها فقال : (خذوا عني مناسككم) .

فطوبى لكم أيها الحجاج الميامين لما وفقكم الله اليه من أداء هذا الركن العظيم من اركان الدين الاسلامي ، ولما انتم مقبلون عليه من مشاهد الخير ، وارتياد أمكنة الفضل ومواقع المغفرة والرضوان ، حيث ستطوفون ببيت الله الحرام ، وستسعون بين الصفا والمروة ، وتقفون بعرفات ، وحيث ستنعمون بزيارة قبر النبي الاكرم ، صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

ها انتم ايها الحجاج الميامين ، تتعلق قلوبكم وترتبط نفوسكم وافئدتكم بتلك البلاد المقدسة ، وتعيشون بارواحكم في تلك المقامات الربانية التي اختارها الله في سابق علمه وببالغ حكمته وارادته ، لتكون منطلق الرسالات السماوية ، وملتقى خيرة البشرية في كل زمان ، وليشع منها النور المحمدي الذي اضاء اطراف المعمور ، ايمانا ويقينا وعلما واستقامة وعدلا واخاء ومودة وسلما وأمانا .

ولا شك انكم ايها الحجاج الميامين حينما تهبطون في تلك البقاع الشريفة ، وتؤدون مناسككم ستاخذون مختلف العبر ، وستعيشون مع تاريخ الدعوة الاسلامية ، وانتم في منطلقها ومركز اشعاعها وأمكنة تاريخها، حيث ستعود بكم الذكريات الى ذلك الايمان القوي ، والعقيدة الراسخة التي كان يتمتع بها اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم طائفة قليلة تواجه ما تواجه من الوان الضغط ، وتقاسي ما تقاسي من ضروب المعاناة ، وتدعو الى ما تدعو اليه من رشد وهداية ، كما ستذكرون تلك الدعوة الربانية التي جاء بها الاسلام ، لينقذ البشرية من ظلمات الجهل الى نور المعرفة ، ومن اوبئة التمزق والحيرة والتناحر والتدابر الى عهد الالفة والاخوة والتصافي ، وستذكرون تلك العقيدة الصحيحة التي تدعو اصحابها وذويها الى عبادة الله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا احد ، بعد أن كانوا يعبدون الاوثان ، وينحتون الاصنام ، وتسيطر الخرافات والترهات على عقولهم ، وتتحكم في مصيرهم العادات والاعراف الجاهلية الضالة .

ولا شك انكم ستشعرون بالافتخار والاعتزاز ، وانتم وسط ذلك الزحام المتكاثف ، وفى خضم ذلك التيار الجارف من الاخوة المسلمين القادمين من كل حدب وصوب ، ومن مختلف جهات المعمور ، ومن مختلف الجنسيات والقوميات ، يتجهون الى قبلة واحدة ويطوفون ببيت واحد ،

ويسعون سعيا واحدا ويقفون موقفا واحدا ، ويلتقون حول عقيدة واحدة بعد ان كان دعاة هذا الدين قلة مضطهدة ، لا تعتمد الا على الله ، ولا عدة لهم الا الصمود والايمان والتضحية والاستماتة ونيل المقاصد وسمو الاخلاق .

وستلاقون في البقاع المقدسة التي انتم عليها مقبلون ، اخوانا لكم من اقطار شتى وشعوب اسلامية كثيرة ، قاصدين الى ما انتم اليه قاصدون، مؤملين الثواب العظيم الذي انتم فيه راغبون وله عاملون ، فآلفوهم وعاشروهم معاشرة المسلم لاخيه المسلم ، ورابطوا بينكم وبينهم باوثق الصلات ، واجتمعوا واياهم على جميل المودة والاخاء ، واعلموا انكم تنتمون الى وطن اعرقت امجاده وتاصلت عاداته وتقاليده ، فليكن تصرفكم عاكسا لما درجتم عليه من حضارة ، ونشاتم عليه من فضائل وشمائل ، وكونوا قدوة حسنة للمقتدين ، ومثالا محمودا للمحتذين ، وخلفوا عنكم اجمل الذكريات ، واطبعوا في النفوس ابقى الصور واروع الانطباعات ، فانكم ان فعلتم ذلك ـ ولا شك انكم فاعلوه ـ غنمتم ان شاء الله محبة الناس ، واستاهلتم رضوان خالقكم واستمتعتم بارتياح عاهلكم .

وابتهلوا الى الله في اتجاهكم الى العلي القدير ، بخالص الدعاء ، وخاشع الرجاء ، ان يكلأ الباري عز وجل عاهلكم بكامل حفظه ورعايته ، ويحرس ولي عهده بشامل حياطته وعنايته ، ويبقى عرش بلادكم عزيز الجانب ، واسع الجاه ، موفور الكرامة ، بعيد الذكر والصيت ، ويكتب لاعمالنا التوفيق والرشاد ويقود خطانا على محجة الصواب والسداد ، بحوله وطوله ، ومنه وعونه .

واذكروا وانتم ضارعون الى الله خاشعون سائلون راجون ، ان يهب المسلمين كافة السند القوي والمدد الذي لا تفيض ولا تنضب روافده والنصر الذي لهم استرجاع حقوقهم المسلوبة ، والظفر الذي يعيد اليهم أولى القبلتين وثالث الحرمين ، والهداية التي ترد كيد الكائدين وتبطل عدوان المعتدين ، « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

ايها الحجاج الميامين :

هنيئا لكم على ما وفقتم اليه من قصد ، وما هديتم اليه من سعي ، والله المسؤول ان يصلح احوالكم ، ويكتب السلامة لكم في حلكم وترحالكم، ومتقلبكم ومثواكم ، ويعيدكم بمشيئته عز وجل الى وطنكم وقد استمرأتم المقام بتلك المشارق الطاهرة والبقاع المقدسة ، وغنمتم الاجر والمثوبة والفوز والرضوان .

« ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد » .

صدق الله العظيم ، والسلام عليكم ورحمة الله .



مع أحمد أمين

للأستاذ محمد ابن تاويت

كان استاذنا احمد امين ، طاقة من نشاط دائب ، لا يعرف الفتور ، بالرغم من المرض الملازم له ، مرض الاستسقاء او السكر المتصاعد ، وكان نشاطه لا يقف عند الميدان العلمي والثقافي ، بل كان يتخطى ذلك ، فيقتحم ميادين شتى ، بشجاعة وحنكة ومهارة فذة .

من هذا وذاك ، ما قصه علي استاذي ابراهيم امين الشواربي ، رحمه الله ، قال ، ان جماعة « التاليف والترجمة والنشر » لما فكرت في احداث هذه المؤسسة ، جمعت من بينها أموالا ، ساهمت بها ، فكانت لا تتعدى مائتي جنيه ، مصري او استرليني ، فلما وضعتها بين يديه ، قال لهم : انها لا تكفي لانشاء هذا المشروع ، ولا تفي بحاجاته المتطلبة ، والخير اراه الآن في استثمار هذا المال ، حتى ينمى ويصبح ملائما لانشاء هذه المؤسسة التي نعتزمها .

وعلى هذا فقد وجه الاستاذ رحمه الله ، هذه الاموال توجيها نحو زراعة القطن ، واستغلال محصوله ، لعدة سنوات ، تمكن في نهايتها من وفر مالي محترم ، يستطاع به ان يقدم على تنفيذ هذه الخطة ، ولكن كانت هناك عقبة اخرى ، هي البناية التي تضم المطبعة برجا ها وعمالها ، وموادها الاستهلاكية والانتاجية .

حينئذ فكر القوم في ان يطلبوا من السراي الخديوي ان يمنحهم بناية ، تساعدهم على تحقيق مشروعهم النبيل ، فكانت اميرة من هذا البيت الحاكم ، تتبرع بالبناية التي اصبحت ملكا للجنة التاليف والترجمة والنشر ، وبدا العمل ، واستمر الاستاذ امين ، رئيسا لهذه اللجنة ، التي كرس لها وقت ما بين العشائين ، يوميا وبدون انقطاع مختار ، يحضر الى مكتبه ، فيراجع الاعمال ، ويحاسب العمال ، ويقرضهم المال عند الحاجة ، ويتقاضى كل ما يتطلب منه .

وجاءت البعثة المغربية الى مصر ، وعرض علي الاستاذ احمد امين ان يقوم بتسيير مكتبها الثقافي ، فقبل ، وما اعتذر ، ووجد نفسه اثر ذلك مطوقا بمهام ومشاكل اخرى ، فلم يعتذر ولم يتخل عنها ،،

وصار المكتب يضم علماء ومفكرين ، يحاضرون به ، من مثل عبد الحميد العبادي واحمد الزيات ، الى جانب الاستاذ نفسه رحم الله الجميع ، كما كان منهم الاستاذ محمد عبد الله عنان ، حفظه الله .

ومن محاضرات الاستاذ امين ، كانت كما أظن في موضوع الخلافة او الخلفاء الراشدين ، فكانت هذه اول محاضراته القيت بذلك المكتب ، ولما تم القاؤها ، وطلب الاستاذ من الحضور القاء اسئلة في الموضوع ، تصدى شيخ من مشايخ الازهر ، وطلابه ، فاعترض على الاستاذ انه ذكر الاموبين ، بفتح الهمزة ، مع ان

النسبة انما هي لامية ، بضم الهمزة ، مما هو معروف عن هؤلاء الازاهرة ...

فاجاب الاستاذ — رحمه الله — بأن الفتح صحيح ، صحة الضم كذلك ، علل هذا ، بان من فتح رجع الى الاسم قبل التصغير ، وهو « امة » ، ومن ضم لم يرجع الى ما قبل التصغير ، ونسب الى « امية » المصغرة .

فكان هذا الجواب ، اول ما استفدته من علوم ، عن استاذنا ، بل كان اول ما استفدته ، منذ وطئت قدماي ارض الكنانة ، وكان لي — ايضا — سؤال ، اتوجه به الى استاذنا ، ولكن الحياء المغربي ، او الخجل المستحيي ، حال ما بيني وبين القاء السؤال، فكتبت الى الاستاذ ، بمضمونه كما تجد في نص الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاستاذ الكبير احمد امين

السلام عليكم ورحمة الله

سيدي الاستاذ ، ذكرتم في محاضرتكم القيمة ، التي سبق ان غذيتم بها عقولنا : ان الخليفة الاول ، كان في اقدامه ، على قتال المرتدين مستبدا ،، الخ.

سمعت ذلك فوقع مني موقع الاستغراب ، وهممت ان استوضح جنابكم ، في المسألة ، حينما تصديتم لتلقي الاسئلة ، لكني خشيت حصر اللسان ، فاخترت ان يكون السؤال كتابيا .

لاجل هذا اقدم اليكم ما خامر ذهني ، في القضية، راجيا منكم توضيح وجه السداد فيها ،،

ظهر لي ان الخليفة لم يكن مستبدا ، فيما اقدم عليه ، حيث كان مستندا في ذلك الى كتاب الله وسنة نبيه ، فرد ما وقع فيه النزاع الى الله والرسول ، من غير ما يستبد برايه ، اما الكتاب ، فقوله تعالى : « يا ايها الذين ءامنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار »،

واما السنة ، فقوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله » .

فعدوله عن راى المشيرين عليه بعدم القتال، انما هو — كما يظهر — لمعارضة النصوص لذلك الرأى، واكبر ظاهرة عرف بها ابو بكر ، اتباع الرسول وتنفيذ اوامره ، على خط مستقيم ، ويشعر قوله في تلك القضية ، بعلة عدم اخذه براى المشيرين « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم عليه » .

وغير خاف على جنابكم ، ان الكلام اذا قيد بقيد، فروح الكلام هو ذلك القيد .

ويزيد المقام توضيحا ، قوله في قضية ابدال اسامة « ابوليه النبي ويعزله ابو بكر » ؟ .

فلم يستمع لقول المشيرين ، لمخالفته امر الرسول ، والقضية هذه — كما لا يخفاكم — هي اشبه باختها من الماء بالماء ،،

وهذه قضية جمع المصحف ، انظروا كيف اجاب المشير عليه بجمعه « كيف افعل شيئا لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم » .

هكذا اجاب من اشار عليه بذلك ، ولكنه لم يلبث ان ادرك ان المسالة ليس فيها مخالفة ، اذ لم يرد فيها نص يحرم حينئذ اذعن للرأي (فلم يزل أبي عمر حتى شرح الله صدري لذلك) فامر بجمع المصحف وتدوينه ،،

هذا ما خالج صدري ، وارجو سيدي الاستاذ ، ان يتفضل بالاجابة عن هذا السؤال وتوضيح ما اشكل ، والله لا يضيع اجر المحسنين .

1939/1/13

محمد بن تاويت التطواني
عضو بالبعثة المغربية

بعد ارسال هذه الرسالة بيومين او ثلاثة تلقيت الاجابة التالية من الاستاذ :

حضرة الفاضل محمد بن تاويت التطواني سلام عليكم ورحمة الله .

قرات خطابكم ، وسرني جدكم ، وتمحيصكم لما يعرض عليكـــم .

كان غرضي من قولي « ان ابا بكر عمل برايه في مسالة الردة » انه اجتهد ، وكان اجتهاده في تطبيق الحادثة على ما ورد في الكتاب والسنة ، ولكن عمر اجتهد ايضا .

والحادثة محل نظر ، ومحل اجتهاد ، لان اهل الردة لم يرتدوا عن الاسلام كما قد يظهر من تسميتهم، بل امتنعوا فقط عن اداء الزكاة مع اقرارهم بان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . فاجتهاد ابي بكر انه يعاملهم معاملة المشركين ، واجتهاد عمر انه يعاملهم معاملة المسلمين العاصين .

فلما شاور ابو بكر عمر وبعض الصحابة اشاروا عليه الا يقاتلهم ، اي الا يعاملهم معاملة الكفار ، ولكن ابا بكر لم يرض عن رايهم ولم يعمل بمشورتهم ؛ لانه راى ان رايه اقرب الى النصوص .

فكانت الشورى غير ملزمة ، ولذلك شاورهم ولم يعمل برايهم ، بل عمل باجتهاده هو . وهذا كل مـــا اريد ، فاني اريد ان اقول ان الشورى لم يكن لهـــا قانون كالخضوع لراي الاغلبية ونحو ذلـــك ، بل ان الامام حر في قبول الراي وعدمه حسبما يؤديه اليه اجتهـــاده .

واظن انه بذلك يتضح رايي .

واكرر شكري على اجتهادكم وتحريكم الحـــق والسلام .

15 — 1 — 39 احمد اميـــن

في هذا التاريخ كان الاستاذ رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، من جامعـة فؤاد الاول ، وكان العميد استاذنا الدكتور طه حسين ، الذي الف كتابا، فيما بعد ، بعنوان : « مستقبل الثقافة في مصر » ، فتصدى لنقده المرحوم الشهيد السيـــد قطـــب ، واندلعت الحرب العالمية ، وعين الدكتور طه ، رئيسا لقسم الثقافة بوزارة المعارف ، فاختار كاتبه الاول السيد قطب .

وتولى عمادة الكلية ، استاذنا محمد شفيق غربال رحمه الله ، ولم تمر سنة ، حتى نقـــل الى العمـــل بالوزارة ، التي صار وكيلها الدكتور طه فانتخـــب للعمادة ، الاستاذ احمد امين .

وتولى رئاسة الوزارة ، مصطفى النحـــاس ، رحمه الله ، وكانت قضيـــة انضمـــام السودان ، او المطالبة بكونه جزءا لايتجزا عن مصـــر ، قضيـــة المصريين جميعا ، وفي مختلف الظروف والاحزاب ، لدرجة ان كان رائجا ، ان « مصر تتنازل عن مصب النيل ولا تتنازل عن منبعه » وكان الوطنيون من طلبة السودان يرون هذا الراي ، وكان يتزعم الفكرة ويدافع عنها بحرارة طالب ، يكـــون كالشلال فـــي مقدمـــة المظاهرات ، وكان النحاس بصفة خاصة ، يعطف على هذا الطالب ، ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان .

فقد دخلنا سرادق الامتحان في اليوم الثانـــي لنستانف عملنا ، واذا بنا نجد على الباب « يافطـــة »

معلنا فيها ان الطالب السوداني فلان ، ضبط متلبسا بالغش ، فاقصي عن الجامعة بصفة نهائية .

وقامت الحكومة وقعدت وتدخلت ، لدى العميد، بقبول الطالب ، منتميا الى الكلية ، فما افلحــت في مسعاها وما خضع احمد امين لمطلبها ، واستمــر الطالب مقصيا او مقصى ، واستمر احمد امين عميدا، يقف في الصباح الباكر ، بباب الكلية ، ليمنع ايــة طالبة تحضر اليها ، وهي تلبس « فســـان » بنصف كم ، واستمرت الصرامة الخلقية ، التـي طرد بهـــا استاذ انكليزي لمجرد انه ، استقبل طالبة بداره التي كان يسكنها وزوجته الانجليزية ، وكانت لــه مواقف غير هذه ، كان آخرها ان الوزارة ارادت اخضـــاع الجامعة اليها ، فاستقال مع من استقالوا ، الاستــاذ احمد امين ، الذي اخلى عهدته وهرع الى مصطاف راس البر لقضاء شهر به .

في هذه الاثناء ، زرته بغتة ، انا والزميل حسن صعب ، فوجدناه ينعى على صديقه الحميم ، الدكتور طه حسين ، اذعانه لقرار الوزارة ، مع انه كان يرفع عقيرته ، باستقلال الجامعة ، لما كان خارجا عــن الوزارة ، وما رعى ان الانسان يكون له منطق ، وهو في الداخل ، يخالف منطقه وهو في الخارج ، لــيس ذلك تلونا ولا تملقا ، ولكن النظرة تختلف باختـــلاف مواجهة الامور والنظر اليها من زواياهـــا المختلفــة العديــدة .

وحل شهر رمضان ، وبدأ راس البر يتخفف من رواده ، وفي تماشاي على شاطىء المصب للنهــر ، لاحظت الاستاذ امين جالسا عند باب احد المقاهــي وهو « يقرقز اللب » فسلمت عليه ، وهنأته بحلــول شهر الصوم ، فأمرني بالجلوس ، وجلست قبالتــه ، بيننا « طربيزة » المقهى ، فناولني سجارة ، مع علبة الكبريت ، وكنت حديث عهد بالتدخين ، فلم احسن توليع السجارة ، والريح تهب تجاهي ، وتظاهــرت بكوني نجحت في المهمة ، فاستمررت في حديث مع الاستاذ ، وحسب ان « الطاربيزة » بيننا ، قد سترت اخفاقي في التوليع ولكن الاستاذ بالرغم من نظراته الساهمة ، ادرك الواقع ، ولم يكن من السائــغ « ان يولع سجارتي » فولع سجارته ، ثم ناولنــي اياهـــا لاولـــع بهـــا .،،

كانت روسيا قد دخلت الحرب ، ضد المانيا ، وخطب « تشرتشل » قائلا : (اني لا اتأخر في وضع يدي بيد الشيطان) . .

وسالني الاستاذ احمد امين عن نشاط المكتب الخليفي ، الذي كان قد توقف ، لمشاكل ، تدخلت فيها السفارة الاسبانية ، قائلا : لم لا تستأنف العمل ، في انعاش هذه الحركة ، التي افادت في نشر التراث المغربي ، وما يتصل به من مؤلفات قيمة ؟

فاجبته ، والله ، كما تعلم : ان الاعمال الآن قد انيطت بالسفارة الاسبانية ، فقال لي بحزم وصرامة : اسمع ، اني لا اتأخر في أن اضع يدي بيد الشيطان، ان كان في هذا الوضع مصلحة مرجوة .،،

وافترقنا ومضت سنون ، وجاءني ابن عمــي ، محمد بن تاويت الطنجي ، فقص علي ما حدث له مــع احمد امين ، وقد زاره مع رفقائه ببيته ، حـــدث ان الاستاذ قدم اليهم السجارة فتقبلها الرفقاء ، واعتذر هو عنها ، فساله الاستاذ لم اعتذرت ؟ اجابه باني لا ادخن ، فاستشاط الاستاذ ، وقال : ياجذع ، كيــف تقول انك لا تدخن ، وانا بيدي ولعت لك السيجارة براس البــر ؟؟

اترك هنا استاذنا احمد امين ، لاتفرغ للحديث عن استاذنا طه حسين رحمهما الله . فالى العــدد القادم ان شاء الله .

تطوان : محمد بن تاويت

قصة الكاتب العربي الكبير الأستاذ أكرم زعيتر مع معركة الظهير البربري :

دعم للحركة الوطنية المغربية في الكفاح من أجل الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية

●● **يعتبر الاستاذ الكبير المجاهد الفلسطيني السيد اكرم زعيتر من أعلام الكفاح العربي والاسلامي في هذا العصر . وقد عاصر معظم ملاحم الجهاد السياسي الذي خاضه العرب والمسلمون دفاعا عن شرفهم وحريتهم واستقلالهم .**

وكان للاستاذ اكرم زعيتر الفضل في اثارة موضوع الظهير البربري على صفحات جريدة (الشرق الاوسط) في مقال قيم نشر في العدد الصادر بتاريخ 16 ـ 9 ـ 1983 تحت هذا العنوان : (في الذكرى 53 للظهير البربري : رسالة تاريخية للامير شكيب ارسلان حول محاولات فرنسا اخراج البربر من الاسلام) .

ويعد هذا المقال من المقالات الممتازة التي عالجت موضوعا مغربيا يعتبر من الموضوعات الهامة في تاريخ العرب والمسلمين في العصر الحديث .

ولهذه الاهمية ، ننقل عن الزميلة (الشرق الاوسط) مقال الاستاذ أكرم مع تقديرنا العميق لدوره ورسالته وسبقه في الجهاد والدفاع عن حقوق أمتنا العربية الاسلامية ●●

احتفل المغرب بمرور ثلاثة وخمسين عاما على صدور الظهير البربري سنة 1930 .. والظهير بمعنى المرسوم ـ هو الذي أرادت فرنسا به ان تخرج البربر من اسلامهم وأن ينتهي بها التدبير الى تنصيرهم ، فباءت بفضل المقاومة المغربية الباسلة بالخسران المبين .

وما كان احتفال المغرب بهذه الذكرى الا لان صدور الظهير كان بدء انطلاق حركة وطنية اسلامية هدفت بادىء بدء الى الذود عن الاسلام ودفع غارة صليبية شنها الفرنسيون على اخواننا البربر الذين عرفوا بتمسكهم بدينهم ، حتى اذا منى ذلك الظهير بالاخفاق واصل احرار المغرب جهادهم في سبيل الاستقلال .

وانه مما يتصل بذكرياتي سنة الظهير ما شرفتني به الاقدار من اداء واجب الانتصار كتابة وخطابة للحركة المغربية ، ولعلي كنت متاثرا بطلابي المغاربة في مدرسة النجاح النابلسية ، اولئك الذين هبوا يثيرون حماستنا القومية وغيرتنا الاسلامية ، وكانوا سنتئذ : المرحوم عبد السلام بن جلون والمرحوم محمد بن عبد السلام الفاسي والمرحوم الطيب بنونة والمرحوم محمد بن عبد السلام الخطيب ، ومحمد محمد الخطيب والمهدي بنونة (اطال الله بقاءهما) (1).

الحركة البربرية كانت اول نتائجها نشاط المغاربة واندفاع شبانهم للعمل وهذه بذاتها
نتيجة كافية لان المساكين كانوا من قبل في حال اليأس لا يبدون ولا يعيدون ،
فالآن الحركة عمت عندهم جميع الطبقات . وجريدة الطان اضطرت ان تعترف ان المغرب
بدأ يسير على خطة مصر وسورية . نعم تأخر لكنه عاد فتعقب الطريق نفسها »
والآن المراقبة من اشد ما يكون على طلبة المغاربة بباريز الذين يقولون لهم دائما : انتم
تسيرون باشارة شكيب ارسلان
ولكن كل هذا غير ثان من عزم هذه الناشئة المباركة المغربية
وكانت النتيجة الثانية ان المسألة البربرية ، وجدت الآن شاءت فرنسا ام أبت .
وبدأ كثير من الفرنسيين يخوضون فيها منهم ضدنا ومنهم معنا . وان حزبا غير قليل
ينتقدون هذا الظهير ويطلبون الغاءه . ومجلتنا لاناسيون آراب تقرأ بكل اهتمام
وتعتبر هي نبض الامة العربية . هذا يبلغنا من نفس باريز . وكل مركز عال سياسي
من مراكز الحكومة الفرنسوية يرسل بدل اشتراكها سلفا ويطلبها
نعم فرنسة تخشى من الغاء الظهير ازدياد الجرأة على مطالب اخرى سياسية فلهذا
لا تزال تتردد في الغائه . ولو حصلت المقاطعة الفعلية لبضائعها واشتدت الحركة عليها
في العالم الاسلامي لم يكن لها مناص من الغاء الظهير . فالمقاطعة والاحتجاج هما

من رسالة الامير شكيب الى اكرم زعيتر بخط يده

وارى انه مما يتصل بذكرى الظهير ان اقتبس من رسالة مفاضة تلقيتها من المرحوم الامير شكيب ارسلان من لوزان مؤرخة في 11 ايار (مايو) 1931 ما ورد فيها عن الظهير البربري ، وفيها يقول :

« الحركة البربرية كانت اول نتائجها نشاط المغاربة واندفاع شبانهم للعمل ، وهذه بذاتها نتيجة كافية ، لانهم كانوا من قبل في حال الياس لا يبدون ولا يعيدون، فالآن الحركة عمت عندهم جميع الطبقات ، وجريدة «الطان» اضطرت ان تعترف «ان المغرب بدأ يسير على خطة مصر وسورية . نعم تاخر لكنه عاد فتعقب الطريق » والآن المراقبة من اشد ما يكون على طلبة المغاربة بباريز الذين يقولون لهم دائما : انتم تسيرون باشارة شكيب ارسلان . ولكن كل هذا غير ثان من عزم هذه الناشئة المباركة المغربية .

وكانت النتيجة الثانية ان « المسالة البربرية » وجدت الآن ــ شاءت فرنسة ام ابت ــ ، وبدا كتاب من الفرنسيين يخوضون فيها ، منهم ضدنا ومنهم معنا ، وان حزبا غير قليل ينتقدون هذا الظهير ويطلبون الغاءه . ومجلتنا « لاناسيون اراب » تقرا بكل اهتمام وتعتبر هي نبض الامة المغربية . هذا يبلغنا من نفس باريز . وكل مركز عال سياسي من مراكز الحكومة الفرنسوية يرسل بدل اشتراكها سلفا ويطلبها » .

« نعم فرنسة تخشى من الغاء الظهير ازدياد الجراة على مطالب اخرى سياسية ، فلهذا لا تزال تتردد في الغائه ، ولو حصلت المقاطعة الفعلية لبضائعها واشتدت الحركة عليها في العالم الاسلامي لم يكن لها مناص من الغاء الظهير ، فالمقاطعة والاحتجاج هما الآن احد اسلحتنا ، فلنرهف هذه الاسلحة . افلم تر الهند كيف ذلت ثلاثة ارباع مطالبها بها ؟ ومسالة الهند هي اعظم مسالة استعمارية في الدنيا » (2) .

(1) وما لبثت البعثة المغربية بعد ذلك حتى نمت وانضم اليها من فتيان المغرب : احمد بن عبد الوهاب، وامحمدبن بن جلون ، وعبد الله الخطيب ، وعبد المجيد حجي ، وعبد القادر الرباحي ، ومحمد بن احساين ، وعبد الكريم الفاسي ، ومحمد الحسيسن ، وادريس بنونة ، واحمد بن عبود ، واحمد مدينة ، وعبد الكريم بنونة .

(2) جاء في رسالة زعيم تطوان المرحوم الحاج عبد السلام بنونة الى الامير شكيب المؤرخة في 9 اكتوبر 1930 في الموضوع قوله : « فكرة مقاطعة البضائع الفرنساوية تسري سريان الماء بالعود ، وظهر اثرها حتى في بعض القبائل البربرية كقبيلتي زعير وزمور ، وبالرباط تأسست شركة لصنع نوع من الكوليك (يدعوه المشارقة قلبق) الذي يقوم مقام الطربوش المجلوب من فرنسا ، وقام بعض اهل فاس يعملون لتحسين الثياب الوطنية وجعلها صالحة للباس سكان المدن بدل الجوخ المجلوب من أوروبا ، وربما جلبت لذلك مناسيج ميكانيكية ، **فعلى كل حال توجد بعض حركة لا بأس بها ترمي الى محاربة اقتصادية** » .

على ان اهم ما يتصل بهذه الذكرى تلك الرسالة الخطيرة البالغة التأثير التي بعث بها الامير شكيب الى الدكتور عبد الحميد سعيد ، الرجل العملاق جسما وعملا ، وكان رئيسا لجمعية الشبان المسلمين في مصر ، وحدث ان عقد مؤتمر لجمعيات الشباب المسلمين ترأسه الدكتور عبد الحميد ، ومما طرح فيه من مواضيع واتخذت فيه مقررات ، اغلاق السلطة البريطانية في فلسطين جمعية الشباب المسلمين بيافا ، وكانت من انشط جمعيات فلسطين وبترأسها للحركات العربية والاسلامية .. ولكن الامير شكيب كان في شغل شاغل .. انه الظهير البربري الذي آل الامير على نفسه ، فور عودته من زيارته لطنجة وتطوان ، أن يثير العالم الاسلامي عليه ، فاجاب على رسالة الدكتور عبد الحميد برسالة تاريخية توجيهية مهمة ، وهي تروي حكاية الظهير ، وفي نشرها في « الشرق الاوسط » التي لها في المغرب مكانتها ، اداء واجب عربي واسلامي وتاريخي .



الامير شكيب ارسلان وعن يمينه علال الفاسي وعن يساره الحاج محمد بنونة في جنيف سنة 1933

المسلم المؤمن المرحوم علي الدباغ ، وموقف حكومة انقرة الكمالية من الاسلام في تركيا واغلاقها عشرات المساجد ، واستيلاء الطليان على الزوايا السنوسية في طرابلس الغرب . وقد بادر الدكتور عبد الحميد سعيد الى ابلاغ الامير شكيب تلك المقررات بوصفه زعيما اسلاميا يترأس الوفد السوري في جنيف وجعل وزميله المرحوم احسان الجابري من مجلة (لا ناسيون اراب) التي يصدرانها في جنيف لسانا

ولعل الذي حثني على نبش هذه الرسالة الوثيقة ان الاخ المغربي التطواني المؤمن ، الذكي الفؤاد ، والزكي الضمير ، الاستاذ عبد القادر الادريسي ، رئيس تحرير المجلة الاسلامية الراقية (دعوة الحق) وجريدة (الرسالة) اهدى الي كتابه (مغرب مسلم) وفي فصله الاول وعنوانه : « المغرب الاقصى من غرفة نوم الى خندق جهاد » اخذ علي عبارة وردت في مقال لي في مجلة (العربي) الكويتية

(العدد 254 يناير 1980) هي : « وأثيرت في العام ذاته قضية الظهير البربري (أي المرسوم) الـــذي ارادت فرنسا به تنصير البربر في الجزائر عن طريق احياء تقاليد بربرية على حساب الشعائر الاسلامية » ، وعد الاخ الادريسي وضعي كلمة « الجزائر » بدلا من « المغرب » خطا تاريخيا ، وقد عجبت انا نفسي من هذا الخطا ورجحت ان اصل العبارة .. « تنصيـــر البربر في المغرب والجزائر » . ولكن كلمة «المغرب» سقطت في التبييض او الطبع .. ولعل في ما تشر اليوم تصحيحا لتلك الاغلوطة .

وهذه هي رسالة الامير شكيب ، وقد ارخت في ايلول (سبتمبر) 1930 :

« سيدي الاخ عبد الحميد بك سعيـــد رئيس جمعية الشبان المسلمين الافخم ، اطال الله بقاءه .

انقرة لثمانين مسجدا ، وحتى من استيلاء ايطاليا على بعض زوايا السنوسية .

وهذه المسالة هي مسالة تشبث فرنسا باخراج البربر من الاسلام بحجة ان اصلهم نصارى وانهم من عرق اوروبي . وهذه المشكلة كانت تحلم انهـــا لا يستتب لها حكم المغرب الا بفرنسة اهله ، وان هذه الفرنسة لا تمكن الا بازالة الديـــن الاسلامـــي . وان العرب لا يمكن أن يخرجوا من الاسلام بمكانهم مـــن اللغة العربية ، فالاقرب تناولا هم البربر ، لانهم ابعد عن الاسلام من العرب ، ولانهم القسم الاكثر عددا من اهل المغرب . فثلثا السلطنة المراكشيـــة بربـــر ، ونصف بلاد الجزائر بربـــر .

وقد كانت هذه النغمة بادىء ذي بـــدء منحصرة في كتاب الفرنسيين لا سيما الكتاب الكاثوليك منهم .



البعثة المغربية في نابلس سنة 1932 ترتدي ثيابا من صنع معمل بنونة بتطوان على الــو المقاطعة ، وهم من اليمين : المهدي بنونة ، عبد السلام بن جلون ، محمد عبـــد السلام الخطيب ، محمد الفاسي ، أحمد بن عبد الوهاب ، الطيب بنونة ، أمحمد بن جلون ، محمد محمـــد الخطيـــب ، عبـــد اللـــه الخطيـــب .

بيد الاجلال تناولت كتابكم الكريم وفهمت ما ذكرتموه عن مؤتمر جمعيات الشبان المسلمين وقراراتـــه . وبهذه المناسبة اعرض لكم ان العالم الاسلامي اليوم هو بازاء مسالة اهم جدا من منع حكومة فلسطيـــن لالتئام جمعية الشبان المسلمين بيافا ، ومن اغـــلاق

ولم تجرؤ الحكومة الافرنسيـــة ان تاخذ بهـــا بصورة رسمية . وجل ما كانت تفعله هو الاخذ بيد الكردينال لا فيجري ورهبانية الآباء البيـــض وغيرهـــا مـــن الرهبانيات لبث الدعاية المسيحية بين البربر . وقد فعلت هذه الرهبانيات بقدر استطاعتها ، وتمكنت من

تنصير عدد من المسلمين اكثرهم من الايتام والفقراء . ولكن هذا العدد بقي ضئيلا بالنسبة الى مقاصد فرنسا .. فأخذت تمنع التعليم الديني شيئا فشيئا مما كان مآله مروق كثير من ناشئة الجزائر من الدين او تركهم شعائر الاسلام . وهذا ايضا لم يكن كافيا ولا شافيا ما بنفس فرنسا من القضاء على الاسلام او على اكثريته بالبلدان المغربية ، فاخذت تمنع تعليم اللغة العربية بين البربر وتفتح مكاتب لتعليم البربرية وبجانبها اللغة الفرنسية لا غير .

ولقد كان شكيب ارسلان في مقدمة من تنبهوا الى هذه الدسائس المقصود بها قلع الاسلام من المغرب او نقل ثلثي اهله بالاقل من الاسلام الى النصرانية ، واشار الى ذلك في هوامش كتاب حاضر العالم الاسلامي ، فضلا عن المقالات المتفرقة في الجرائد .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تجاهر في هذه المسالة مجاهرتها الاخيرة الا بما جراها من عمل الكماليين الذين يحاولون هدم الاسلام في تركيا والذين سلكوا الى ذلك طريق التدريج منذ ثماني سنوات . فهي اي فرنسا ترى انه اذا كانت حكومة اسلامية تلغي الشريعة الاسلامية ولا حرج عليها ، فلا يكون حرج على حكومة غير اسلامية اذاحاولت الغاء هذه الشريعة .

لذلك قررت اخراج البربر من الاسلام بصورة رسمية غير مكتفية ببث دعاية تنصير ولا بارسال مبشرين ، ولما كانت الحكمة تقتضي التدريج كما لا يخفى ، اتقاء الانفجارات التي تحدثها الطفرة ، بدات فرنسا بقضية الغاء المحاكم الشرعية من بين البربر وحاولت اخذ ظهير بذلك من السلطان مولاي يوسف رحمه الله فامتنع برغم وضعه وبرغم اغراء الوزير المقري الذي هو آلة بيد فرنسا . اما في الجزائر فاصدرت اوامرها بحمل البربر على عوائدهم القديمة ، وانشات لهم محاكم خاصة ، قضاتها فرنسيون ، وقطعت كل علاقة لهم بالشريعة حتى في الاحوال الشخصية . ثم لما توفي السلطان مولاي يوسف بادرت بتنصيب احد اولاده . ووضعت للسلطان الفتى مديرا اسمه (المعمري) هو آلة في يدها .

واعظم سبب كان لترجيحها هذا السلطان الحديث السن على اخوته هو املها باخذ الظهير القاضي باخراج البربر من حظيرة الشريعة الاسلامية ، فانني سمعت منذ بضعة ايام اذانا في (طنجة) من احد وزراء المغرب السابقين ان السلطان يوسف صرح له بان الفرنسيين يلحون عليه في اصدار هذا الامر وهو يجاوبهم بانه يستحيل عليه اصدار امر كهذا .

فما اغمض السلطان مولاي يوسف عينيه حتى استصدروا الظهير الذي ارادوه بمواطاة المقري والمعمري ، وهو ظهير يخرج ثلثي اهالي سلطنة المغرب من الاسلام ، لانه يلغي الشريعة الاسلامية من بين جميع قبائل البربر ويردهم الى محاكم تحكم بعاداتهم . واذا استؤنفت احكامها فلا يكون الى محاكم السلطنة المغربية الاستئنافية بل الى محاكم افرنسية . فالمكيدة مصنوعة في وقت واحد على الدين الاسلامي وعلى سلطنة السلطان نفسه . ثم انهم مع الغاء القضاء الشرعي من بين البربر اسسوا مكاتب لتعليم البربرية والافرنسية معا وحالوا بين البربر واللغة العربية تماما . هذا وبثوا المبشرين بالدين المسيحي بين البربر ليعملوا عملهم .

وكما كان (شكيب ارسلان) في مقدمة من نبه الى هذه المرامي السيئة بحق الاسلام في المغرب واوضح ذلك منذ ست سنوات في حواشي حاضر العالم الاسلامي . فقد نبه ايضا الى عمل فرنسا هذا بالصورة الرسمية وما فيه من التعرض للحرية الدينية ومن العبث بحقوق الامم ، وذلك منذ ظهور هذا الظهير من نحو ثلاثة اشهر . وكان اعتراضه هذا في المجلة الفرنسية العبارة La Nation Arabe التي يصدرها هو واحسان بك الجابري في جنيف (سويسرا) وهذا هو السبب في كون الحكومة الفرنسية منعت هذه المجلة رسميا من دخول المغرب، ولقد اوضح فيها كيف ان حكومة فرنسا تعدت في هذا الامر على الدين الاسلامي ، ودخلت — وهي الحكومة التي تزعم انها حكومة مدنية لا دينية — في امور دينية اسلامية صرفة ، مما هو خرق للمعاهدات واعتداء على حقوق البشر . فاما كون البربر اصلهم من الاوروبيين وانهم كانوا نصارى الخ. فهو غير صحيح ، فالبربر ما عدا فئة قليلة جدا اصلهم ساميون من آسيا ، ولم يكن منهم نصارى الا قسم ضئيل ، وبالتالي فهذا الامر خارج عن صلاحية فرنسا لان

الناس لا يسالون عما كان عليه آباؤهم بل يسالـــون عما يقولونه هم ، فالبربر اذا سئلوا يقولـــون انهـــم مسلمون ، فباي حق تتعرض فرنسا لامورهم الدينية ؟

اما اهالي المغرب فلم ينتشر بينهم الخبر الا بعد صدور الظهير بنحو شهرين ، فبرغم الضعف الـــذي هم فيه اكبروا هذا الامر اكبارا بلغ الحد الاقصـــى ، وقام الشبان منهم فخطبوا في جامع القرويين بفاس، ووقع هيجان شديد عم مدن المغرب : فاس ومراكش والرباط وسلا والدار البيضاء ، وانما كان اشده بفاس والرباط . فأول ما شاهدت فرنسا من شبان المغرب هذه العربدات عمدت الى استعمال القوة ، ووكلت بها اولئك المرتدين من رجال حكومة المخزن ـ مثـــل الوزير المقري وناظر شرطة بفاس اسمـه البغدادي واضرابهم ـ فساقوا مئات من هـؤلاء الشبـــان الى السجون ، وضربوا بالسياط نحو ستين شابا بفـاس وعددا لا اعرف مقداره في المدن الاخرى . ولقــد شاهدت شابا من طلبة العلم بفاس جاء الى طنجة مع آخرين فقيل لي انه كان من جملة المضروبين ، وهو الذي اخبرني بانهم جلدوا بالسياط نحو ستيـــن أو سبعين شخصا في فاس ، وانه لا يزال اناس رهنـاء السجون . وبرغم هذا كله بقي الهيجان يشتد .

فعند ذلك اعلنت فرنسا انها ليست من هـــذا الامر في ورد ولا صدر ، وان المسالة كلها من الحكومة الشريفية واليها ، وانه لا دخـــل لفرنساوي بهـــا . فيظهر انها خشيت ثورة عامة في المغرب وفضيحة في الدنيا كلها . ومن التمويهات التي اعلنتها ان هذا الظهير ليس بجديد ، وانما هو مبني على ظهير سابق صدر من السلطان يوسف . وهذا ليس بصحيح ، بل هو كذب محض ، لان السلطان يوسف لم يصدر ادنى ظهير بالغاء المحاكم الشرعية من بين البربر .

هذا واما اتصل الخبر بالبربر انفسهـــم انكروا ذلك اشد الانكار وجاء زعماء عدة قبائل منهم من اكبر قبائلهم وطلبوا اعادة قضاة الشرع بينهم ، ففي البداية القوهم في السجن ، ولكنهم لم ينثنوا عن عزمهـــم ، وازداد الهيجان ، فاضطر الفرنسيون الى اخذ اوامر باعادة خمسة قضاة شرعيين الى البربر ، ولمـــا كان الخبر قد فشا بين البربر بان المقصود تنصيرهـــم ارتاعوا وتقاضوا الحكومة المرتدة اكمال جوامع كانت هذه الحكومة قد توقفت عن بنائها عملا باشارة فرنسا،

فلم يسع الحكومة هذه المرة الا ان تسكن خواطرهم وتباشر اكمال المساجد التي كان الفرنسيون قـــد اوقفـــوا تشييدهـــا .

ثم ان الهيجان لم يقف ولم يمهل برغم الجلـــد والارهاب والحبس ، وصاروا يجتمعون في المساجد كلها ويقراون لطيفا : (يا لطيف الطف بما جرت بـــه المقادر ، ولا تفرق بيننا وبين اخواننا البرابر) وكانت قراءة الجموع في المدن كلها لهذا اللطيف اشد مـــن الصواعق على الفرنسيين ، فاستعملوا كل الوسائل لابطاله فلم يفلحوا ، فذهب المقري ـ رجل عمره ما يقرب من تسعين سنة وعنده ثروة عظيمة غير محتاج لشيء ، وهو يسعى ضمنا بابطال دين الاسلام مـــن المغرب لتبقيه فرنسا في الوزارة ، ـ فتأملوا ـ ذهب هذا الرجل الى فاس وجمع وجوه البلد وطلب منهـــم ترك قراءة اللطيف ، فطلبوا منه الغاء الظهير الصادر بعدم معاملة البربر بالشريعة الاسلامية واعادة المكاتب الاسلامية بين البربر فلم يقدر ان يعدهم بشيء مـــن هذا ، وزعم زعما هو من اغرب ما سمع من الترهات وهو ان السلطان حر يفعل ما يشاء وانه ليس بمحجور للفقهاء والعلماء . الا ان الاهالي اصروا على الغـــاء الظهير . وبعد الاخذ والرد ذهب وفد من فـــاس الى الرباط لمقابلة السلطان عدده خمسة وثلاثون شخصا ومرادهم ان لا يرجعوا الا بالغاء الظهير . وقـــد كان خروجي من طنجة قبل ان اعرف نتيجة عمل هـــذا الوفد . وانما سمعت بطنجة وتطوان ان السلطـــان ميال جدا الى الغاء الظهير ، ولكن المعارضة انما هي من المقري الذي يخشى اذا الغي الظهير ان تغضـــب عليه فرنسا . . .

وبهذه المناسبة نذكر انه ظهر من بعض العلماء الرسميين في هذه المسالة نذالة تامة ، بل هي لامراء نوع من الردة ، لانهم كانوا يوبخون الشبان والعامة على هيجانهم تزلفا للفرنسيين وبعضهم لاجل تسويغ هذه المخاسرة على دينه كان يقول : ان البربر هم اكفر من الافرنـــــج .

اما الشبان الذين لم يتعلموا تقريبا شيئا مـــن الفقه والدين فهم الذين قاموا بهذه الحركة ، وهـــم الذين كانوا يضربون بالسياط وكلما ضربوا سوطـــا يهتف الواحد منهم : فليحي الاسلام .

اما المنطقة الاسبانية فلم يحصل فيها تشبث بنقل البربر عن الاسلام ، ولكن من المحقق انه ان نجحت فرنسا (لا قدر الله) في هذه الدسيسة في المغرب والجزائر كان لا مناص من الاقتداء بها في المنطقة الاسبانية ...

وقد علمت بتطوان - سرا - ان بعض الاسبانيول اخبر احد المسلمين بانهم اطلعوا على كتابات من الفاتيكان نفسه الى بعض الرجال الرسميين من الفرنسيس بانه ان كان تم العمل ولزمت المباشرة بتنصير البربر ، فالفاتيكان حاضر لانشاء المكاتب والمدارس ، وارسال الدعاة وبذل الاموال الخ ..

ثم اني حضرت بطنجة سابع المولد النبوي وفيه يحصل اجتماع كبير من اهل طنجة وجوارها احتفالا على اسم الولي ابو عراقية رضي الله عنه ، فجاءت الوف مؤلفة وسارت المواكب في الشوارع على يومين حاملة الاعلام الاسلامية ، وهي تنشد اناشيد حماسية وتهتف : فليحي الاسلام ، ومن جملة ما سمعتهم ينشدونه بصوت واحد :

يا شبابا ، سر امامـا
لتوافي كل غيـة

كلما استسهلت صعبا
نلت القابا عليـة

وكذلك سمعتهم ينشدون بصوت واحد ابياتا منها :

يا رب وانصر ديننا المحمدي
واجعل مآل عزه كما بدي

فطنجة برغم ان اكثر من ثلثها افرنج ويهود اثبتت انها بلدة اسلامية ، والفضل في ذلك كله للشبان ، ففيها للشبان ثلاث جمعيات - وهي جمعية الهلال ، وجمعية المغرب ، وجمعية الشروق - وقد اشتدت حماستهم هذه المرة اكثر من قبل لما ظهر لهم من نية فرنسا بحق اسلام المغرب ...

واخواننا المغاربة فاهمون جيدا انه ان تمكنت فرنسا من الغاء الشريعة الاسلامية من بين البربر وابطال كل تعليم اسلامي من بينهم ، لا تمضي سنوات معدودة حتى ترفع الشريعة الاسلامية ويرفع القرءان الكريم من بين قبائل ومن المدن ايضا ، اذ اي فرق بين العرب والبربر لا فالكل مسلمون ، وما جاز على هؤلاء يجوز على اولئك .

يا اخواننا : ان القضية الجارية الآن بالمغرب هي قضية تنصير مسلمي الاندلس حذو القذة ، لا فرق بينهما الا بأن الاولى جرت قبل عهد « النور والحرية » بأربعمائة سنة ، فلا ينبغي ان يظن ظان ان تنصير مسلمي الاندلس جرى دفعة واحدة . كلا ، بل قد اخذ اكثر من مائة وعشرين سنة . ولما سقطت غرناطة - او بالاحرى لما سلموها - سلموها على شروط وثيقة صريحة فصيحة ، امضاها فرديناند وايزابلا والاساقفة وامراء الاسبانيول وقوادهم وعظماؤهم اجمع ، وذلك بأن المسلمين يكونون امناء على دينهم ومساجدهم واملاكهم واعراضهم ودمائهم ، وانه لا يجوز لنصراني حتى ولا للملك ولا للملكة ان يدخلا جامعا بدون اذن المسلمين وانه من كان اسلم من النصارى لا يجبر على الرجوع الى النصرانية ، وغير ذلك من الشروط التي هونت على المسلمين امر التسليم حتى صارت المساجد كنائس ، وحتى ابطل الاذان ثم منعت الصلاة ومنع الاستحمام ثم منع الزي الاسلامي ثم قلبت الاسماء جبرا ثم منع التكلم بالعربي ، وأحرق المخالف بالنار مما جميعكم تعرفونه .

اي ان المسألة لم تقع الا تدريجيا . فاليوم مرادهم الغاء الشريعة الاسلامية من بين البربر ، والاجبار على التعليم الافرنسي ، ومن بعد عشرين سنة لا يبقى من البربر مسلمون . ثم لا يصبر الفرنسيس مدة عشرين سنة حتى يصدروا الاوامر نفسها بشأن العرب ، وعند ذلك لا يبقى مسلم لا في المغرب الاقصى ولا الاوسط ولا تونس حرا بان يكون مسلما بربريا كان او عربيا ، ان الكماليين لو صودموا من اول خرق خرقوه لما تجرأوا على الاستمرار وحتى يصلوا الى ما وصلوا اليه ، لكن الترك لاسباب عديدة صبروا على الكماليين وبالغوا في الصبر فصاروا كلما اجتازوا مرحلة ساروا الى اخرى ، وهؤلاء القوم ان نجحوا في سياستهم البربرية فلا تمضي خمسون سنة حتى يصير المغرب مغربا لشمس الاسلام . هذا بدون مبالغة ، والاسباب الداعية الى ذلك كثيرة ، ان

شئتم ابدي لكم رايي فيها بكتاب قادم ؛ لان كتابي هذا قد طال كثيرا . . .

لا سبيل لفرنسا ولا لاحد ان يزعم ان هذا تدخل في شؤون فرنسا الداخلية ، لا حرية لفرنسا ـ مهما كانت حرة في مستعمراتها ـ ان تتعرض لشؤون اهالي المستعمرات الدينية ، حتى انه تجوز مراجعة جمعية الامم في قضايا كهذه بحق اية دولة ثبت انها تعرضت لدين رعاياها .

انظروا الى الامم الاوروبية كلها كيف قامت من كل جهة تحتج على ضغط البلاشفة على الدين المسيحي ، ولم يقل احد ان هذا تدخل في الشؤون الروسية الداخلية . ولا شك ان جلبة اوروبا التي ارتفعت من كل صوب لحماية النصرانية ، والروسية قد عدلت كثيرا عن خطة البولشفيك . اذن يجب على المسلمين في كل الدنيا ان يبرقوا الى باريس اولا بصورة لطيفة مستجلبين نظرها الى ما هو جار بالمغرب مما هو مخالف لمبادئها من التعرض للامور الدينية . فان لم تحصل نتيجة للشكوى يصير الابراق بصورة شديدة ، ويبرق الى جمعية الامم والى ملوك الاسلام ليتدخلوا في الموضوع لان مسالة الدين ـ كما لا يخفى ـ يجوز التدخل بها .

لا شك ان فرنسا مهيئة اعذارا منها ان البربر هم طالبون العمل بعوائدهم لا بالشريعة الاسلامية . . وانها لا تقدر ان تجبرهم على العقيدة الاسلامية واللغة العربية ، وان الظهير صدر من السلطان لا مدخل لفرنسا فيه الى غير ذلك من الخزعبلات ، فالجواب سهل ، وهو ان البرابر مسلمون كالعرب وان الغاء المحاكم الشرعية من بينهم هو كالغائها من بين العرب بلا فرق .

ثم لماذا يجبر البربر على تعلم الافرنسية دون العربية ؟ ثم ما معنى الغاء التعليم الاسلامي من بين البربر ؟ ثم ما معنى ارسال القسوس تحت حماية الحكومة للدعاية المسيحية بين البربر ؟ اما الظهير وما ادراك ما هو ـ فمن يصدق ان سلطانا مسلما يامر بمجرد ارادته بالغاء دينه وشريعة قومه من بين ثلثي رعاياه ، ثم يحملهم على امور تخرجهم من تحت سلطانه .

ثم من اعظم العوامل لابطال هذه الدسيسة الفظيعة وارجاع فرنسا عنها هو فضيحة القضية في الجرائد ، فينبغي ان الجرائد الاسلامية كلها تقوم وتكتب عن هذه المسالة بالانكار والاكبار اللازمين ويكون ذلك بمصر وفلسطين والعراق وسورية والهند وجاوى .

واشاعة هذه المسالة في الجرائد ممكنة بمساعي جمعية الشبان المسلمين ؛ فلا يكفي ان (المنار) او (الفتح) تنشر هذه الفظيعة ، بل يجب على جميع الجرائد العربية نشرها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اخوكم
شكيب ارسلان

وبعد فارحم اللهم شكيبا واجعله واخوانه ممن قضى نحبه من احرار المغرب الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه « مع الذين انعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين » وبارك في اعمار « من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

لمحات من تاريخ سبتة

في القرن الخامس عشر الهجري، الحادي عشر الميلادي

للأستاذ سعيد أعراب

كان علينا في كل مناسبة، ان نذكر بامجاد مدينتنا « سبتة » ـ السليبة، واي مناسبة اكرم وامجد، من ذكرى تربع محرر الصحراء، جلالة الملك الحسن الثاني ـ على عرش أسلافه المنعمين، الذي لا يهدأ له بال، حتى يحرر سائر اطراف مملكته، وما ذلك على همته بعزيز.

وقد اخترت ان اتحدث في هذه السطور، عن لمحات من تاريخ سبتة في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وان شئت قلت :

ـ صور وامجاد من تاريخ سبتة على عهد امارة البرغواطيين وهي حلقة مفقودة في تاريخ المغرب ـ اذا استثنينا اشارات عابرة، وقد يتساءل القارىء لماذا ؟ ولكن لا يستطيع ان يجد جوابا ! (1).

كانت سبتة بعد سقوط الدولة الادريسية تحت نفوذ الامويين بالاندلس. ولما انقرضت دولتهم، وخلفهم الموحديون ـ كان في جملة ما استردوه، سبتة وما والاها (2)، وظلت تحت حكمهم ـ الى ان استبد بها مولاهم سكوت البرغواطي على ما سنذكره بعد.

من هو سكوت هذا ؟

تختلف الروايات في اسمه، فيذكره بعضهم باسم سواجات (3)، او سكات (4) بينما يذكر البعض الآخر باسم سقوت (5) او سكوت (6) ـ واشهرها،

---

(1) قد يكون للحملة المغرضة التي شنها بعض الكتاب الاندلسيين ضد امارة البرغواطيين ـ اثرها، ويأتي في مقدمة هؤلاء : ابن بسام الشنتريني، والاسف ان يتأثر بذلك بعض المؤرخين المغاربة، امثال عياض وتلميذه ابن حمادة.

(2) كان اول وال على سبتة من الحموديين، علي بن حمود الادريسي، عينه عليها سليمان المستعين بالله ـ سنة (403 هـ ـ 1012 م)، ولم يلبث ان ثار ضده، واعلن نفسه ملكا مستقلا سنة (404 هـ ـ 1013 م)، انظر : ابن عذاري، البيان المغرب 212/3 ـ 115.

(3) انظر : البيان المغرب 216/3 ـ 231.

(4) انظر : الحميدي : جذوة المقتبس ص : 33، و الضبي : بغية الملتمس ص : 28.

(5) انظر : البيان المغرب 213/3 ـ 231.

(6) انظر : ابن ابي زرع، روض القرطاس 45/1 ـ طبع المغرب، وابن خلدون العبر 456/6.

فهو سكوت بن محمد (7) البرغواطي ، نسبة الى برغواطة ـ القبيلة الشهيرة بالمغرب : (تامسنا) ـ الشاوية ـ حاليا .

وقد ولد سكوت في حدود سنة (385 هـ ـ 5 99 م) (9) .

وكان مولى لرجل حداد ، اشتراه من سبي برغواطة ـ في ايام جهادهم (10) ثم صار الى علي بن حمود (11) وقت امارته بسبتة ـ وهو دون البلوغ ، فتوسم فيه النجابة (12) وقربه اليه ، ثم اعتقه واسند اليه عدة اعمال، قام بها خير قيام ، وفي ايام ابنه يحيى ، برز في عدة ميادين ، وعندما بويع ادريس بن يحيى خليفة على مالقة ، استخلفه (13) على سبتة ، وذلك في حدود سنة (14) (434 هـ ـ 1042 م) .

فأخذ سكوت الامور بجد وصرامة، ولكن ولاه ادريس، لم يكن في مستوى المامورية المنوطة (15) به ، ولا عنده من الكفاءة القيادية ، والحنكة السياسية ، ما يجعله يثبت نفسه على كرسي الخلافة (16) ، ففي سنة (438 هـ ـ 1146 م) قام عليه ابن عمه محمد ابن ادريس فخلعه ، ونصب نفسه مكانه ، وحاول اصحابه الدفاع عنه ، ولكن بدون جدوى (17) ، فخرج في عياله الى سبتة (18) ، ونزل بقصر الخلافة ، فاظهر سكوت تعظيمه وخاطبه مخاطبة الملوك ، ولكن ظل هو صاحب الامر والنهي ، ولم يكن لادريس من الخلافة الا الاسم ، وقد شدد عليه الحصار ، وكان لا يدع احدا يصل اليه ، ورغم ذلك ، فقد ظل يخطب له بالخلافة ، الى ان توفي سنة (19) (444 هـ ـ 1052 م) .

---

(7) ورد ذكر اسم ابي سكوت (محمد) عند ابن بسام ، ولعلها الرواية الوحيدة التي ذكرت ذلك . انظر القطعة التي اوردتها مجلة تطوان ع : 11 ص : 114 .

(8) والتسمية الصحيحة لها (بلغواطة) ـ باللام ، والنسبة اليها (بلغواطي) ، والعامة تقوله بالراء . انظر : ابن دحية ، المطرب ص : 88 ـ 89 ، وقارنه مع ما في البيان المغرب 225/1 ـ 226 .

(9) قدرنا ذلك ، لان اكثر الروايات تذكر أنه توفى سنة (471 هـ ـ 1079 م) ـ وسنه نحو (90)، وبعضهم يحدد بالضبط ، (86) سنة ـ كما في ـ روض القرطاس 46/1 .

(10) ولعل ذلك ايام غزو جنود المنصور بن ابي عامر لهم ، فقد حاربهم مولاه واضح ، وعظم فيهم القتل والسبي . انظر : الناصري : الاستقصا 16/2 .

(11) هي رواية ابن بسام في الذخيرة : مجلة تطوان ص : 114 ، وابن خلدون في العبر 6/ 456 ، والذي عند ابن عذاري في البيان المغرب 3/ 250 ـ انه كان مولى ليحيى بن علي بن حمود ، اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة .

(12) عبارة ابن خلدون : (فاخذت النجابة ـ بضبعه) .

(13) هناك رواية اوردها ابن بسام في الذخيرة مجلة تطوان ص :114 ، وابن عذاري في البيان المغرب 250/3 ـ تذكر ان الذي استخلف سكوت على سبتة هو يحيى الوالد ، لا ادريس (الابن) لكن الذي يؤيد الرواية الاولى ، هو ما ذكره عياض في « المدارك » ـ عند ترجمة عثمان بن سعيد بن حمادة : ان دخول البرغواطيين الى سبتة كان بعد (430 هـ) انظر : ج 8 (مخطوطة خاصة) .

(14) وكان اشرك معه في الحكم مولى آخر يدعى رزق الله البرغواطي ، لكن يبدو ان سكوت كان ذا شخصية قوية ، وكان وجود رزق الله الى جانبه ـ صوريا لا اثر له ، ولم يلبث ان تخلص منه ، فامر بقتله ـ على ـ ما ياتي بعد .

(15) انظر : : المراكشي ، المعجب ص : 67 .

(16) نفس المصدر .

(17) انظر : البيان المغرب 217/3 .

(18) المصدر نفسه .

(19) هكذا عند ابن عذاري في البيان المغرب 3/ 218 ، ولعلها الرواية الوحيدة التي تذكر وفاة ادريس عند سكوت بسبتة في هذا التاريخ ، والذي في الجذوة : 33 ـ 34 ، والبغية : 29 ، والمعجب : 67 ـ 68 ، ان ادريس عاد الى الاندلس ، ونزل عند بني يفرن بتاكرنا ، وبويع له ثانية بمالقة .

ولعل من هنا جاءه لقب الحاجب ، ثم انتقل الى ولده بعده كشعار .

امـــارة سكـــوت :

كانت منطقة الشمال ــ بما فيها سبتة وطنجة ــ تحت امرة سكوت البرغواطي ، وكانت قبائـل غمارة تدين له بالطاعة والولاء (20) ، وقد حاول التسلـل اليها ــ والدعوة الى نفسه ــ ادريس بن يحيى الملقب بالسامي ، فما ان نزل بريف غمارة ، حتـى انكشف أمره ، فألقى عليه القبض ، وسيق الى سبتة ، فقتله سكـوت (21) .

القاسم بن محمد يستنصر بسكوت :

وفي سنة (446 هـ ــ 1054 م) ــ اتجهت اطماع المعتضد بن عباد الى الجزيرة الخضـــراء ــ واميرها يومئذ ــ القاسم بن محمد ، وضيق عليـه الخناق ، فاستنصر بسكوت فلم ينصره ، وطلـب اللجوء الى سبتة ، فلم يؤذن له ، ثم ركب البحر الى المرية ، وبقي بها الى ان توفي ، وهو آخر خلفاء بني حمود بجزيرة الاندلس (22) .

سكوت يعلن نفسه ملكا مستقلا على سبتة :

وفي سنة (453 هـ ــ 1061 م) ــ امر سكوت بقتل مستشاره الخاص : رزق الله البرغواطي ، وكان ادريس بن يحيى قد جعله ناظرا عليـه ، ومراقبـا لاعماله (23) ، وكان سكوت أراد ان يتخلص من كـل تبعية لبني حمـود ، ومر بنـا ان القاسم بن محمد استنصر به فلم ينصره ، وقتل ادريس بن يحيـى السامي عند تسلله الى غمارة ــ توجسا منه ، وهكذا صفى الحساب مع مواليه الحموديين وأعلن نفسه ملكا مستقلا على سبتة ، وتسمى بالمنصور ، وجعل ولاية العهد لولده يحيى ، الملقب بضياء الدولة ، وضرب السكة باسم الخليفة العباسي القائم بالله : عبـد الله (24) ، اثبت على الوجه الاول (سكوت المنصور المعان) ، وعلى الوجه الثاني (الحاجـب ضيـاء الدولة (25) . ــ يعني ولده يحيى ولي العهد .

نشوب حرب بين سبتة واشبيلية :

وفي سنة (457 هـ ــ 1065) نشبت حرب بين سبتة واشبيلية لامر بسيط ، ذلك ان المعتضد بـن عباد ، امر بالقاء القبض على تاجر سبتي ، فانتقم له سكوت ، فامر باعتقال عدد من رجال التجارة بسبتة ، كانوا رعايا ملك اشبيلية ، ومصادرة املاكهم ، وظلت الحرب بين الجانبين مدة ، وكان لابن عباد اسطول ضخم ، يتكون من (80) قطعة ، حاول ان يضـرب الحصار على سبتة من جهة البحر ، ولكنه في النهاية اضطر الى الانسحاب ، بعد معارك ضارية ، ومن يومئذ اصبحت لسكوت السيطرة الكاملة على منطقة البوغاز ، وقطع الطريق على السفن التجارية التي تمر بالبحر الابيض المتوسط (26) ، واعتبر نفسه في حرب مع جيرانه في الجزيرة الايبيرية .

سكوت يتتبع حركات المرابطين :

يبدو ان نفوذ سكوت ، لم يكـن قاصـرا على المنطقة الساحلية بشمال المغرب ، بل تجاوز ذلـك الى المنطقة الداخلية ــ بما في ذلك فاس ومكناس ، وما اليهما ، ويدل على ذلك ، ان المرابطين لما احتلوا

---

(20) انظر : العبـــر 457/6 .

(21) انظر : البيـــان المغرب 218/3 .

(22) ومدتهم بها ثمان وخمسون سنة . انظر : البيان المغرب 218/3 ، وقارنه مـع ما في المعجـب للمـــراكشي ص 68 .

(23) انظـر : البيـــان المغـــرب 250/3 .

(24) ولعل سكوت اول من دعا ــ بالمغرب ــ الى الانضواء تحت الجامعة الاسلامية ، فدان بالطاعة للخلفاء العباسيين ، وضرب السكة باسمهم .

(25) انظر : كتاب ملوك الطوائف لصاحبـه : بريسطوفيفس ص : 117 ــ حيث يصف اربعة نقـود ضربت خلال (464 ــ 467 هـ 1071 ــ 1075 م) .

(26) انظـــر : الذخيـــرة مجلة تطوان ص 115 .

جنوب المغرب ، وبداوا يهددون فاسا ، وسواها من المدن الكبرى ، بادر صاحب مكناس المهدي الكزنائي، فعقد حلفا معهم ، فثار ضده تميم بن المعنصر امير فاس ، وقامت حرب بينهما ، انتهت بهزيمة الكزنائي ، فقتله وبعث براسه الى سكوت ـ ملك سبتة (27) .

وعندما احتل يوسف بن تاشفين فاسا ـ بعد حصار طويل ، واستولى على عدة جهات من قبائل غمارة (28) ـ وهي تابعة لسبتة ، بعث سكوت كتابا الى صاحب اشبيلية ـ وقد عادت العلاقة بينهما الى مجراها الطبيعي ـ يخبره فيه بان زحف المرابطين الى جهة الشمال ، يهدد مملكتيهما ، ويعرض ـ بالتالي ـ هذه المناطق الساحلية للخطر ، ويبدو ان ملك اشبيلية ـ وان اظهر بعض اهتماماته ، فاعطى اوامره بمراقبة الساحل مراقبة شديدة (29) كان في شغل شاغل من امره ، وقد احدقت به الاخطار من كل جانب !

استيلاء المرابطين على طنجة ومقتل سكوت :

بعد ان اخضع يوسف بن تاشفين بلاد الدمنة بقرب طنجة ، وحصن علودان من المعاقل المنيعة بجبال غمارة (30) ، اتجه صوب طنجة ـ وكان أمر الدفاع عنها بيد ضياء الدولة ولد سكوت ، وقد جند كل قواه لمحاربة جيش المرابطين الذي كان تحت امرة صالح بن عمران ، ورغم ان سكوت كان يبلغ من العمر نحو التسعين سنة ، فقد غادر (31) سبتة ـ في جيش كثيف ، كامل العدة ، واقسم ان لا يسمع احد من رعيته طبول اللمتونيين ـ وهو حي ـ ابدا !

وقد التقى الجمعان بوادي منى ـ على ابواب طنجة ، وكانت الدائرة على سكوت فقتل ، ودخل جيش المرابطين طنجة سنة (32) (471 هـ ـ 1079 م) والتجا ولده يحيى الى سبتة يجر اذيال الهزيمة (33) !

وهكذا انتهت دولة سكوت البرغواطي على يد ابن تاشفين ، وكانت مدتها (33) سنة ، او تزيد ، وكان بطلا شهما ، مثال الحزم والصرامة ، عاشت سبتة على عهده في امن ورخاء ، وسعادة وهناء ، اتسع العمران وكانت له قصور فخمة ببليونش (34)ـ ضاحية سبتة (35) ، وازدهرت الثقافة الاسلامية ، وانتشرت حلقات العلم ، ومجالس الدرس في المساجد والجوامع ، وكانت تعقد المناظرات في الفقه والحديث ، يحضرها جهابذة العلماء ، وائمة الفقه (36) .

---

(27) انظر : ابن ابي زرع ، روض القرطاس 42/1 .

(28) انظر : ابن ابي زرع ، روض القرطاس 44/1 ، والناصري ، الاستقصا 27/2 .

(29) انظر : دوزي ، بنو عباد 251/1 .

(30) انظر : روض القرطاس 44/1 ، وتاريخ ابن خلدون 45/6 .

(31) وتذكر بعض الروايات ان ابن تاشفين ، دعا سكوت لمظاهرته ، فهم بالانحياش اليه ، لكن ابنه وزمرة من رجال دولته ثنوه عن ذلك ، انظر : الذخيرة مجلة تطوان ص 116 ، وتاريخ ابن خلدون 6 / 457 .

(32) يقتضي سياق حديث ابن زرع ، وصاحب الاستقصا ، ان فتح طنجة كان سنة (470 هـ ـ 1077م) ولعل الصواب ما ذكره صاحب الذخيرة .

(33) ويحدد ـ بالضبط صاحب الذخيرة ذلك اليوم ، بانه كان يوم كسوف الشمس الكلي . انظر : مجلة تطواع ع : 99/11 ـ 108 .

(34) ولعلها هي التي يعنيها الشاعر المنصفي بقوله وهو يذكر من محاسن بليونش :

تشاركت والحسن في وصفها ... تشارك العين مع الحاجب
وقد ارتنا اليوم من حسنها ... ما لم يكن في زمن الحاجب

قال ابو العباس المقري : ويعني به الحاجب سكوت البرغواطي . انظر : ازهار الرياض 36/3 .

(35) ويصفها ابن حيان ـ وهو ممن عاشوا العصر البرغواطي ـ اذ يقول : (.. ومنتزهاتها : أعظمها بليونش ، تحتوي على مياه عيون ، واودية ، ومنتزهات ، وأبنية عظيمة ، وفيها من جميع الاشجار والثمار ..) . انظر : ازهار الرياض 34/1 .

(36) وقد اورد امثلة من ذلك ـ عياض في الفهرست ، والمدارك ، وابن حمادة في المختصر .

وكان سكوت محبا لاهل العلم والادب ، مقربا لهم ، يدعوهم لمجلسه ويستشيرهم (37) ، وعندما ورد ابو الاصبغ بن سهل على سبتة ، نوه سكوت بمكانه ، وقربه اليه وكانت له حظوة كبيرة لديه (38).

ومن الواردين على سبتة ـ في عهد البرغواطيين ، ابو الحسن الحصري ، الشاعر الضرير ، وله فيهم القصائد الغر ، وقد اجزلوا له العطاء (39)، ونظم ابن مرانة ـ باسم سكوت ـ قصيدته المشهورة في الكوائن والحوادث (40) ، وقد تنبأ فيها بسقوط دولة البرغواطيين على يد اللمتونيين وملكهم لعدوة الاندلس (41) ، فأعجب لهذا الرجل الذي يسمع لناظم يتنبأ بسقوط دولته ، ولا يفتك به ـ كما كان مصير كثير من المنجمين عند ملوكهم .

كتابه ومستشاروه :

ومن الذين كتبوا لسكوت ، ابو بكر بن عطاء الكاتب الاديب ، وقد لازمه مدة حياته ، وكتب بعده لولده يحيى ضياء الدولة (42) .

ومن الفقهاء المستشارين لديه : ابو الفضل حمود بن يوسف بن حمود بن ابي مسلم الصدفي (43)، وهو الموطىء لدولة البرغواطيين ـ كما يقول عياض (44) .

ومن رجال دولة سكوت ـ المكنى سعادة ، وكان صاحب شرطته ، ومن حرص سكوت على تغيير المنكر ، وتطهير المجتمع من عناصر الشر والفساد ، انه كان يبعثه الى رجال العلم ، وأهل الفضل ـ يسألهم عما يلحقونه من مناكر ، ليقوم بتغييرها ، ويقضي عليها في مهدها ، قبل أن تستشري ويستعصى علاجها (45) .

قضاته :

ومن قضاته المشهورين :

1 ـ ابو عبد الله محمد بن عبد الله الاموي ، شيخ سبتة وقاضيها ، ومفتيها ، وصالحها ، ذكر عياض انه ولي القضاء على سبتة مرتين : مرة ايام البرغواطيين ، والاخرى اول دولة المرابطين (46) ، بينما يذكر تلميذه ابي حمادة ان المرابطين رفضوا ولايته ـ بعد ان رشحه لهم ـ مروان بن عبد الملك اللواتي ، بسبب علاقته مع البرغواطيين ، وولايته لهم (47) ، ومهما يكن فقد كان ابو عبد الله الاموي ، فقيها متضلعا ، حافظا للمدونات ، كثير التحري للحق، قدم للشورى مع ابي الاصبغ بن سهل ، ومروان بن عبد الملك اللواتي ، واحتاج الناس اليه في التدريس والفتيا ، فراس اهل بلده (48) .

2 ـ ابو محمد عبد الله بن حمو بن عمر اللواتي ، المعروف بالمسيلي ، من اكابر فقهاء سبتة

---

(37) انظر : ابن حمادة مختصر المدارك ، اللوحة (125 ـ أ) .
(38) انظر : مختصر ابن حمادة ، اللوحة (137 ـ ب) .
(39) انظر : الذخيرة مجلة تطوان ص : 116 .
(40) انظر : أزهار الرياض 37/3 .
(41) انظر : مقدمة ابن خلدون ص : 609 .
(42) انظر : ابن دحية ، المطرب ص 89 .
(43) انظر : ترجمته في المدارك ج 284/7 .
(44) ولعل ذلك كان منه انتقاما لوالده ابي الحجاج الذي كان قاضيا على عهد ادريس بن علي بن حمود حيث رفض شهادة هذا الامير ، وقبل بدلها شهادة صيادي السمك ، فأبى الا ان يعزله ، ويلحق به غضاضة . انظر : المدارك ج 280/7 ـ 8 28 .
(45) انظر : قصته مع الفقيه الزاهد ابي علي حسن بن خالد الزبيدي في كتاب « التعريف » ـ لمحمد ابن عياض ص 56 ـ 57 .
(46) انظر : الغنيمة ص 125 .
(47) انظر : مختصر ابن حمادة ، الورقة 138 ـ ب.
(48) انظر : مختصر ابن حمادة ، الورقة 138 .

ومدرسيها ، وكان يسمى عصا ابن يربوع لملازمته له، كتب لابراهيم بن جماح في قضائه ، ثم ولي احكـــام القضاء في ايام البرغواطيين ورحل الى جنوب المغرب فلحق فيها رئاسة عند المرابطين اول خروجهم ، ثم رجع الى سبتة فاتهم بمخالطة المرابطين ، فخلف على نفسه ، فرحل الى المرية وبها توفي (49) .

3 ـ ابـو علـي حسن بن محمد القيسي ، المعروف بان البريا ، الحافظ جزل ، راس في الفتيا، قائم على المذهب ، متقدم في المسائل والاحكـــام والقضاء ، وكان محمد بن العجوز يقول فيـــه : اذا اخذ ابو علي المسالة لم يترك لقائل ما يقول ، كانت له عند البرغواطيين مكانة كبرى ، ثم لحقته بعد ذلـــك منهـــم نفـــرة (50) .

4 ـ ابو عبد الله محمد بن غالب الهمداني ، من بيوتات سبتة المعروفة بالعلم والجلالة ، رحـــل الى المشرق ، وحج وسمع من شيوخ مصر ومكة .

امتحن بالاخراج من سبتة (51) ـ في جملة من الفقهاء ـ الى مالقة ، ثم ولى قضاء سبتـــة ، وكان حسن السيرة في قضائه ـ الى ان عزل لسبـــب ، واخرج مع اهله الى بادس ، ثم عاد الى سبتة ، وكان في جملة المفتين الى ان مات (52) .

الدراسة القرآنية على عهد البرغواطيين :

يبدو ان سكوت ـ وان كانت ثقافته محدودة ـ فقد كان رجلا دينا ، محبا لاهل العلـــم والفضـــل ، يستمع للقرآن ، ويشجع على دراسته وحفظه ، فقد كتب الى الوليد بن جهور ـ صاحب قرطبة ، يطلـــب منه قارئا للقرآن ، فوجه اليه من طلبة قرطبة ، رجلا يعرف بعون الله بن نوح (53) ، ولقـــي ابو الحسن الحصري ـ وهو من ائمة هذا الفن ـ كل تشجيـــع ، فقد نظم ـ وهو بسبتة قصيدته الشهيرة ، التي يقول في مطلعهـــا :

اذا قلت ابياتا حسانا من الشعـــر
فلا قلتها في وصف وصل ولا هجر
ولكني في ذم نـــفسي اقولهـــا
كما فرطت فيما تقدم من عمـــري
ولا بد من نظمي قوافي تحتـــــوي
فوائد تغني المقرئين عن المقـــري

وهي في (212) بيتا ، وقد تداولها النـــاس ورووها عنه ، وشرحها جماعـــة ليس هذا محـــل ذكرهـــم (54) .

وكان ورود الحصري على سبتـــة بعد نكبـــة القيروان سنة (449 هـ ـ 1057 م) وكان ضريرا ، سكن سبتة ، وتولى تدريس القراءات بها ـ أزيد من عشر سنوات ، وتخرج على يديه كثيرون (55) ، وربما كانت اول مدرسة القراءات ـ في المغرب ـ بسبتة .

وقد رحل ابو الحسن الى طنجة سنة (483هـ ـ 1090 م) وظل يقرىء بها ، الى ان وافتـــه المنيـــة سنة (56) (488 هـ ـ 1095 م) .

---

(49) نـــفس المصـــــدر .
(50) المصـــــدر نـــفسه .
(51) امتحن جماعة من فقهاء سبتة ـ باخراجهم ، اما الى بادس بريف غمارة ، او الى المرية ، او مالقة، ولعل ذلك للظروف التي كانت تعيشها سبتة وقت ظهور المرابطين ، فكانت السلطة تتخذ بعـــض الاجراءات التعسفية ضد من كانت تحوم حولهم الشبه ، وفعلا فقد التحقت طائفة من فقهاء سبتة بالمرابطين ، وساروا في ركابهم .
(52) انظر : مختصر ابن حمادة ، الورقة (125 ـ 1) .
(53) انظـــر : البيـــان المغـــرب 250/3 .
(54) انظر : المكتبة القرآنية بالمغرب ـ بحث لكاتب هذه السطور ، نشر بصحيفة (الميثاق) في حلقات. انظر في موضوع الحصري س 7 ع 118 ـ ص 5 .
(55) انظر : ابو الحسن الحصري ـ للمرزوقـــي و الجيلاني ص 40 .
(56) نـــفس المصـــــدر ص 1 8.

ومن ائمة القراءات الذين اقرءوا بسبتة مروان ابن عبد الملك اللواتي (57) ، وابو علي بن خالد الزبيدي (58) ، وسواهم .

أدباء هذا العصر :

ومن رجال الادب الذين عاشوا هذا العصر :

1 — ابو محمد عبد الله بن غالب الهمداني السبتي ، كان اديبا بليغا ، وشاعرا مجيدا ، قال فيه ابن حمادة : له اشعار كثيرة ذكرناها في كتابنا في تاريخ اهل سبتة (59) .

2 — اسماعيل بن يربوع ، كان فقيها نبيلا ، واديبا شاعرا ، خرج من سبتة أول ظهور المرابطين، وكان معهم الى ان توفي بأغمات ، وكأنه لم يكن راضيا عن دولة البرغواطيين (60) .

3 — مروان بن عبد الملك بن ابراهيم بن سمجون اللواتي ، أصله من طنجة ، سكن سبتة مدة، وكان له باع طويل في مختلف العلوم والفنون ، وكان عالما اديبا ، عارفا بالنحو واللغة والقراءات ، آخذا بأشعار العرب ، خطيبا مصقعا ، فصيح الكلام ، وولي الفتيا والخطبة على عهد البرغواطيين ، ولما انقضت مدتهم ، ودخل المرابطون سبتة ، خرج الى بلده طنجة ، وولي لهم عدة مناصب ، منها : الشرطة ، والقضاء ، وكان يرجع اليه في تعيين القضاة بالعدوتين (61) .

4 — ابو سعيد عثمان البرغواطي ، حلاه عياض بالاديب ، وكان جهينة اخبار سبتة ، عارفا بأحوالها ، خبيرا بأهلها ومشيختها (62)... في جمهرة كبيرة من اهل اللغة والادب ، لا تدخل تحت حصر .

شعراء العصر البرغواطي :

ومن شعراء العصر البرغواطي الذين خوالنا تراثهم :

1 — أبو الحسن الحصري ، شاعر القصر (63).

2 — ابو بكر بن عطاء الكاتب ، اورد له ابن دحية مقطفات من شعره (64) .

3 — ابن مرانة ، مر بنا انه نظم — باسم سكوت — قصيدة في الكوائن والحوادث ، قال ابن خلدون : وهي من الطويل على روي الراء ، متداولة بين الناس (65) .

4 — ابو هارون عبد الله بن القابلة السبتي ، قال فيه ابن دحية ، من الشعراء السبتيين المطبوعين، واورد من شعره (66) .

5 — ابو العباس احمد بن غازي ، ذكره صاحب المطرب ، واورد من شعره (67) .

6 — ابو الحسن علي بن عمر بن فقيه سبتة ابي محمد عبد الله بن غالب ، ذكره ابن دحية واورد من شعره (68) .

---

(57) انظر : عياض ، الغنية ص 260 .
(58) انظر : مختصر ابن حمادة — اللوحة (118 ب) .
(59) نفس المصدر — اللوحة (125 — أ) .
(60) نفس المصدر — اللوحة (118 — أ) .
(61) نفس المصدر — اللوحة (138 — ب ، 139 — أ) .
(62) انظر : محمد بن عياض ، التعريف ص 41 .
(63) انظر : الذخيرة مجلة تطوان ص 116 .
(64) انظر : المطرب ص 89 .
(65) انظر ابن خلدون ، المقدمة ص 609 .
(66) انظر : المطرب ص 88 ، وابن الوزير المرقصات والمطربات ص 81 .
(67) انظر : المطرب ص 90 .
(68) انظر : المطرب ص 89 .

7 ـ موسى بن عيسى السمسار البرغواطي ، ذكره صاحب المطرب ، واورد من شعره (69) ، وهو ـ فيما اعتقد ـ من اسرة البورغواطيين الذين استوطنوا سبتة ، وسبق ـ منهم ـ ابو سعيد عثمان البرغواطي ـ جهينة اخبار سبتة ـ في آخرين .

ولعل مما يصور لنا اهمية هذا العصر ، ومدى ازدهار الثقافة العلمية والادبية فيه ـ قولة ابن عباد: اشتهيت ان يكون عندي من اهل سبتة ـ ثلاثة نفر : ابن غلزى الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة القرضي (70) .

ثم جاءت دولة ولده يحيى ضياء الدولة ، المتسمى بالمعز ـ وربما كان أحفل باهل العلم والادب من ابيه ، وكان شجاعا مقداما ، خرج بنفسه لملاقاة المرابطين عندما هاجموا سبتة سنة (71) (47 هـ ـ 1084 م) . وكان على راس اسطوله ، فاستطاع ان يكسب المعركة ، ويأخذ بزمام المبادرة ، فيقضي على الاسطول المرابطي في الجولة الاولى ـ لولا تدخل اسطول ابن عباد ، ومحاصرة الجيشين له برا وبحرا (72) ، ولم يستسلم الا بعد ان قاتل قتال الابطال بالمال ، فقال له بلهجة المعتز بنفسه : الخازن نطالبه بالمال ، فقال له بلهجة المعتز بنفسه : الخازن ابيك كنا نجمعه (73) ؟! فبادره المعز بضربة قاضية، كانت فيها نهاية حياته ، ومدة دولته ست سنوات ، وبضعة اشهر ، وقد بحث في خزائنه ، فالقى من بين ذخائره ـ خاتم يحيى بن علي بن حمود (74) ، وكان البرغواطيون يعتبرون انفسهم ورثة الحموديين (75) .

ويحدثنا ابن بسام عن ضياء الدولة ـ خاتمة البرغواطيين ، اذ يقول : (.. ولما افضت الدولة البرغواطية الى الحاجب المعز ، شهاب أفلاكها ، وخيرة املاكها ، هبت للادب ريحا ، ونفحت دولته في اهله روحا ، اعرض به الشعراء واطالوا ، ووجدوا به السبيل الى القول وقالوا ، وممن خيم في ذراه ، ونال الحظ الجسيم في دنياه ، الحصري الضرير ، فان له فيه ما اذهل الناظر الرقاد ، واغنى المسافر عن الزاد ، والحاجب يكحل عينيه بزينة دنياه ، ويفتق لهاته بمواهبه ولهاه ، وكان سهل الحجاب للقصاد ، طلق اليد للمواهب الافراد ...) (76) .

بينما رمى والده سكوت بكل نقيصة ، وجرده من كل منقبة (77) ؛ لا لشيء ، الا انه وقف في وجه اطماع اهل الجزيرة الالبيرية ، وكال لهم صاعين بصاع، وربما كان له الحق في ذلك ، ولنا عودة الى الموضوع في فرصة اخرى بحول الله ..

تطوان : سعيد أعـراب

---

(69) نفس المصدر ص 18 .
(70) انظر : معجم بلدان (سبتة) .
(71) تختلف الروايات في فتح سبتة ، فالذي في روض القرطاس 51/1 ـ ان فتح سبتة في ربيع سنة (477 هـ) ، وتبعه على ذلك صاحب الاستقصا 31/2 ، وذهب ابن بسام في الذخيرة مجلة تطوان ص : 117 ، وابن خلدون في العبر 458/6 ـ الى ان فتحها كان سنة (476 هـ .
(72) انظر : ابن خلدون : العبر 458/6 .
(73) انظر : الذخيرة ج .
(74) انظر : ابن خلدون ـ العبر 458/6 .
(75) انظر : مجلة تطوان ع : 11 ص
(76) وفيه يقول الحصري ـ وهو يذكر العظام الذين افتى عليهم الدهر :
ابن مالك العزيز قدما وان تذ — كر قريبا فابن ملك المعز
واخطأ الذين قالوا انه المعز الصنهاجي
انظر : المرزوقي والجيلاني ، ابو الحسن العمري ص 29 .
(77) انظر : الذخيرة ج



-2-

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

رحلة الى العالم الجديد :

في عام 1368 هـ موافق 1948 م (1) سافر (سيد) الى (أمريكا) في مهمة دراسية تتحدد في الوقوف على المناهج الدراسية واصول التعليم بعكس ما ذهب اليه الاستاذان : احمد الجدع وحسن داهم جرار في كتابهما (شعراء الدعوة الاسلامية في العصر الحديث) (2) من ان (سيدا) اختير في بعثة دراسية الى (امريكا) فحصل على الماجستير ، ذلك ان رحلته هذه لم تكن من أجل الحصول على شهادة علمية ، وانما كانت فقط رحلة للاطلاع على مناهج التعليم في مختلف الجامعات والمعاهد الامريكية بوصفه احد موظفي وزارة المعارف ، وقد نقل ذلك الاستاذ مصطفى العالم عن (سيد) نفسه فيما كتبه عنه بصحيفة (الشهاب) البيروتية ، ومما يؤيد هذا ما قاله اخوه الاستاذ محمد من ان : « بعثته لم تكن محدودة بزمن معين ، وانما كانت مدتها تنتهي بانتهاء دراساته الميدانية . فقد كان امر انهائها بيده هو يعود متى شاء » .

ولو ان رحلته كانت لاجل الحصول على الماجستير ما كان امر انهائها بيده كما قال شقيقه ، اذ الدراسة الانتظامية ليست بيده انما هي بيد الجامعة .

ولو ان رحلته ايضا كانت لاجل هذا الغرض كذلك لذكر (سيد) نفسه ذلك في الحلقات التي نشر من كتابه الضائع (أمريكا التي رايت) والتي نشرها تحت عنوان (في ميزان القيم الانسانية) في مجلة الرسالة .

سافر (سيد) الى (امريكا) في هذه المهمة الدراسية ، وكانت هذه الرحلة ، في الحق ، طريقا للخلاص جعلته يفيء الى نفسه ، ويتساءل عن السلوك الذي يمكن ان يسلكه في العالم الجديد قائلا : « أأذهب الى امريكا واسير فيها سير المبتعثين العاديين الذين يكتفون بالاكل والنوم ؟ لا بد من التميز بسمات معينة ؟ وهل غير الاسلام والتمسك بآدابه والالتزام بمناهجه في الحياة وسط هذا المعمعان المترف، المزود بكل وسائل الشهوة واللذة والحرام ، واردت ان اكون الرجل الثاني ، وأراد الله

(1) ذهب الاستاذ مهدي فضل الله في كتابه (مع سيد قطب في فكره السياسي والديني) ص 50 الى انه سافر الى امريكا 1949 ، وما اثبته هو الصحيح عندي اعتمادا على ما جاء في حوار شقيقه السالف الذكر وهو مقدم على غيره ، ويؤيد هذا العظم والخالدي في كتابيهما عن (سيد) .

(2) يذهب المؤلفان في هذا الكتاب بانه سافر سنة 1947 ، والصحيح ما اثبته .

ان يمتحنني هل انا صادق فيما اتجهت اليه ام هـو مجرد خاطرة » (3) .

بهذا التساؤل اشرق في اعماق (سيد) نـور الايمان ، فاختار ، ونعم ما اختار ، اختار طريـق الهدى يمشي على نوره ، وكان في غمار هذا الاختيار ابتلاء بعد لحظات يشبه الى حد بعيد ، ابتلاء يوسف عليه السلام الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم (4) في القصة المعروفة بينه وبين امراة العزيز (5) مـع فارق بين الابتلاءين : ابتلاء النبوة وابتلاء فرد عادي من البشر ، وآية ذلك ان (قطب) ما ان دلـف الى غرفته في السفينة حتى اقتحمت عليه فتاة الغرفـة تراوده عن نفسه وفي ذلك يقول : « فاذا انا بفتـاة هيفاء جميلة فارعة الطول شبه عارية يبدو من مفاتن جسمها كل ما يغري ، وبدأتني بالانجليزية هل يسمح لي سيدي بان اكون له ضيفة عليه هذه الليلـة (6) ، فاعتذرت بان الغرفة معدة لسرير واحـد ، وكـذا السرير لشخص واحد ، فقالت وكثيرا مـا يتسع السرير الواحد لاثنين ، واضطرت امام وقاحتهـا ومحاولة الدخول عنوة لان ادفع الباب في وجههـا لتصبح خارج الغرفة ، وسمعت ارتطامهـا بالارض الخشبية في الممر فقد كانت مخمورة » .

هكذا تفوق (سيد قطب) على نزغات الشهـوة فانتصر على نفسه الامارة بالسوء في الامتحان الاول الذي امتحنه الله به في المرحلة الاولى من تحولـه المفاجيء الى الاسلام ، لذلك حمد الله تعالى قائلا : « هذا اول ابتلاء وشعرت باعتزاز ونشوة اذ انتصرت على نفسي وبدات اسير في الطريق الذي رسمتـه لهـا » (7) .

وهذه الاشراقة الايمانية التي ضاءت بها اعماقه كانت حافزا له ، وهو في الباخـرة ، الى ان يدعـو المسلمين الموجودين فيها الى اقامة صلاة الجمعـة بها تحديا لمنصر كان يزاول عملـه التصيـري في السفينة ، يقول متحدثا عن هذه النازلة : « كنا نفرا من المنتسبين الى الاسلام على ظهر سفينة مصريـة تمخر بنا عباب المحيط الاطلسي الى (نيويورك) من بين عشرين ومائة راكبا وراكبة اجانب ليس فيهـم مسلم ، وخطر لنا ان نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة والله يعلم انه لم يكن بنا ان نقيـم الصلاة ذاتها اكثر مما كان بنا حماسة دينيـة ازاء (مبشر) كان يزاول عمله على ظهر السفينة ، وحاول ان يزاول تبشيره معنا ، قد يسر لنا قائد السفينـة — وكان انجليزيا — ان نقيم صلاتنا ، وسمـح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها — وكلهم نوبيون مسلمون — ان يصلي منهم معنا من لا يكون في (الخدمة) وقت الصلاة وقد فرحوا بهذا فرحا شديدا اذ كانت المرة الاوى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة ، وقمت بخطبة الجمعة وامامة الصلاة » (8) .

اقام (سيد قطب) في العالم الجديد فعايـن حضارته الهابطة وجرت له فيه ما لم يكن يتصوره من مواقف الاغواء ، من ذلك ملاحقات فتاة له كلما انتقل من جامعة الى اخرى او سافر من مدينة الى اخرى(9)، وربما هذا من الخطط الامريكية الشيطانية لاحتـواء (سيد) واصطياده وايقاعـه في شرك الحضـارة الغربيـة السفيهـة .

كما جرى له مع بعض الشباب الامريكان حوار عن الجنس ، وحاول ان يغريه بشتـى الوسائـل لتخديره دون جدوى ، وقد استطاع في هذا المجتمع الاباحي ان ينتصر على نزغات النفس الامارة بالسوء ، يحكي (سيد) عن بعض ذلك فيقول : « قالت لـي احدى الفتيات الامريكيـات في معهـد المعلميـن

(3) انظر صحيفة الشهاب البيروتية — السنة 6 — العدد 9 ، ص : 8 — عام 1392 هـ — 1972 م .
(4) اورد الله تعالى القصة في سورة يوسف .
(5) وزير مصر حينذاك وكان على خزائنها ، انظر ابن كثير (اسماعيل) تفسير القرآن العظيـم ج 2 ص : 473 — طبعة دار الفكـر .
(6) انظر صحيفة الشهاب السابقة الذكر .
(7) انظر صحيفة الشهـاب السابقة الذكـر .
(8) انظر الظلال : المجلد 4 ، ص : 422 — ط : 6.
(9) انظر صحيفة الشهاب البيروتية السابقة الذكر.

(جريلي كولورادو) في أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية في امريكا ، ان مسالة العلاقات الجنسية مسالة بيولوجية بحتة ، وانتم الشرقيين ، تعقدون هذه المسالة البسيطة بادخال العنصر الاخلاقي فيها فالحصان والفرس والثور والبقرة والكبش والنعجة والديك والفرخة لا يفكر احد منها في حكاية الاخلاق هذه وهو يزاول الاتصال الجنسي ، ولذلك تمضي حياتها سهلة بسيطة مريحة » (10) .

ويحكي (سيد) ايضا عن بعض ذلك قائلا : « كنت مع زميل مصري ننزل في هذا الفندق ـ بعد وصولنا الى الولايات المتحدة الامريكية بيومين اثنين ـ وقد انس الينا عامل المعهد الزنجي لاننا اقرب الى لونه ، لاننا لا نحتقر الملونين ـ فجعل يعرض علينا خدمات في الترفيه ويذكر عينات من هذا الترفيه بما فيها الشذوذات المختلفة (11) .

وبعد رجوعه ايقن ان المجتمع الغربي غير صالح مطلقا للاقتداء ، وقد صرح بذلك لصديقه الاستاذ توفيق الحكيم (12) في رسالة بعث بها اليه يهاجم فيها الحضارة الامريكية المتفسخة ، وصرح به ايضا في كتابه : (امريكا التي رأيت) مؤيدا ذلك بالحجة ، والبرهان ومحللا في الوقت نفسه البنية المجتمعية المنخورة للعالم الجديد .

في الحق ان رحلته الى (امريكا) كانت محكا لمشاعره ، ومجهرا شاهد من خلاله حقيقة الحضارة الغربية ، فحفزه ذلك الى ان يغير نظرته نحو هذه الحضارة وينظر اليها نظرة الاحتقار خاصة ما يتعلق بواجهة الاباحية فيها وواجهة الاستعباد والميز العنصري .

وعرفته هذه الرحلة ـ بجانب ذلك ـ بما يكنه الغرب من حقد على الاسلام ، وليس ادل على ذلك من انه لاحظ فرحة تغمر الاوساط الامريكية حين بلغها اغتيال الامام الشهيد حسن البنا رضي الله عنه (13) ، وفي هذا يقول : « كنت يومها في امريكا ، اي يوم قتل الامام الشهيد حسن البنا ، ولم اكن اعطي الحركة الاسلامية ولا لمرشدها من اهتمامي ما يجعلها على مستوى التنظيمات السياسية او الدعوات الاجتماعية الاخرى ، ولم اكن اتصور انها تشكل في بؤرة الشعور الغربي شيئا يذكر حتى صدمني الواقع من حولي في امريكا ، وهزني وفتح عيني فتحا على ما لم افطن اليه من قبل .

---

(10) انظر كتابه : (الاسلام ومشكلات الحضارة ، ص : 74 ـ طبعة 1962 .

(11) انظر كتابه : (الاسلام ومشكلات الحضارة ، ص : 75 .

(12) احد أعلام الادب العربي الحديث (1316 هـ ـ 1898 م) ولد بالاسكندرية ابوه من قرية (الدلنجات) وامه تركية ، التحق بالمدرسة الابتدائية بدمنهور وبالتعليم الثانوي بالقاهرة ثم التحق بمدرسة الحقوق ، في هذه الفترة كانت مواهبه الادبية تتفتح ، سافر الى فرنسا لدراسة القانون ، ولكنه انصرف الى قراءة الادب والمسرح ، تقلد عدة وظائف من بينها وظيفة مدير التحقيقات بوزارة التعليم ، له اعمال قصصية ومسرحية كثيرة من بينها (اهل الكهف) و (الملك اوديب) انظر ضيف (شوقي) الادب العربي المعاصر في مصر ص : 288 وما بعدها ، والرمادي (جمال الدين) من اعلام الادب المعاصر ص 127 وما بعدها .

(13) حسن بن احمد بن عبد الرحمن البنا (1324 ـ 1368 هـ = 1906 ـ 1949 م) عالم داعية مصلح سلفي مجاهد ، ولد بالمحمودية قرب الاسكندرية ، درس على الطريقة القديمة علوم اللغة والدين فتضلع فيهما والتحق بدار العلوم وتخرج منها ومارس التعليم وانصرف بعد ذلك الى الدعوة الى الله فأسس جماعة الاخوان المسلمين ، من انتاجه : (مذكرات الدعوة والداعية) و (مجموعة رسائل) . انظر شلبي (رؤوف) الشيخ حسن البنا ومدرسة الاخوان ، وانظر السمان (محمد عبد الله) حسن البنا الرجل الفكرة ، وانظر التوبة (غازي) الفكر الاسلامي المعاصر دراسة وتقويم ، وانظر ريتشارد ميشيل (الاخوان المسلمون) ترجمة عبد السلام رضوان .

لقد شهدت مظاهر الابتهاج والفرحة والشماتة في كل شيء من حولي في الصحافة وفي جميع اجهزة الاعلام في كافة المنتديات ، كلها تهلل ويهنيء بعضها بعضا بالتخلص من اخطر رجل في الشرق ؛ فعجبت من هذا الاهتمام به والتقييم لحركته ، والتتبع الواعي الى هذا الحد الذي لا وجود لمثله في بلادنا نفسها ، وعلمت ان في الامر سرا اكبر يغيب عني يكمن في طبيعة دعوة هذا الرجل ، وفي شخصه العظيم الذي لم احظ بمعرفته على الوجه الاكمل ، وانا اعيش معه في وطن واحد ، الامر الذي لم استوفه حتى مع المستعمرين ، وصممت بعد عودتي من امريكا ان اعيد بحث الامر من جديد .

ووصلت الى (مصر) وقرات جميع رسائل الامام الشهيد ووقفت على سيرته النقية واهدافه الحقة وعلمت لم'ذا يحارب ولماذا قتل ، وعاهدت الله على ان احمل الامانة بعده وأواصل السير على نفس الطريق الذي لقي الله عليه ، والذي آمنت به وهداني اليه وانا في امريكا » (14) .

صورة (سيد) الخلقية والخلقية :

كان الشهيد ، عليه الرضوان ، اسمر اللون ربعة في الرجال وان كان الى القصر اميل قليلا ، جعد الشعر ، رقيق الاحساس حلو العشرة ، لين الجانب جم التواضع ، شفوقا باغاثة اللهفان ، حاضر البديهة تتقد حدقتاه ذكاء وفطنة وجدية ، في لسانه لثغة مقبولة في الراء لا تؤثر في اشراقة بيانه وهو يتحدث او يلقي خطبة ، ولا تنال من فصاحة لسانه ، وسلاسة عبارته وهو يحاضر او يناظر او يجادل او يلهب النفوس في مهرجان خطابي .

عرف بالجراة في الحق ، لا يخاف في الله لومة لائم مهما كلفه ذلك من العناء ما كلفه ، وهو بذلك يمثل انفة واباء الصحابة والسلف الصالح من هذه الامة ، وهذا هو ما اوغر عليه حكام مصر حين يئسوا من استمالته اليهم بكل حيلهم بالمال والمنصب والجاه ، فجربوا معه اسلوبا آخر هو اسلوب التعذيب والتنكيل فما لان ، عليه الرضوان ، فاستعلى بايمانه الذي اكرمه الله تعالى به على كل الحيل الشيطانية والوسائل الاغرائية ، فاطلق كلمته الصادقة الصارخة المدوية في سمع الزمن : « ان اصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة يرفض ان يكتب حرفا واحدا يقربه حكم طاغية » (15) .

ان الانفة التي عرف بها (سيد قطب) والتي تحدى بها جميع وسائل الاغواء قد رباه عليها ابوه ــ كما سبق القول ــ وعندما هداه الله تعالى الى طريق الاسلام والتزم بتصوره الخالد نظرية وتطبيقا تبرعمت هذه الصفة فيأعماقه واورقت وزكت فتفرعت عنها صفات اخرى هي الشجاعة النادرة والسخاء الكبير والايثار الجميل ، ولهذا لم يكن يبالي في سبيل الدعوة الى الله ما يمكن ان يترتب عن مواقفه من عواقب ، فانغمر في حياة الجهاد بكل ما يملك من قوة واخلاص وتضحية كبرى متطلعا في شوق غامر كبير الى الشهادة .

ومن صور البذل والسخاء التي لا يعرفها الكثير من الناس عنه انه برغم ريع كتبه الكثيرة لم يستطع ان يملك بيتا يسكنه ، اذ ما كان تدره عليه كتبه ينفقه على اسر تلاميذه الذين حيوا معه المحنة وعاشوا معه وراء القضبان (16) .

ويجدر بي بهذه المناسبة ان انقل بعض مواقف الكرم والنزاهة اوردها الاستاذ صلاح الخالدي في كتابه : (سيد قطب الشهيد الحي) تعتبر مصابيح على الطريق ويكاد يجهلها الناس ، وجل محبي (سيد) وفيما يلي هذه المواقف المصابيح .

« وقد روى لي الاستاذ احمد عبد الغفور عطار حادثة غريبة رآها بنفسه تدل دلالة واضحة على

---

(14) انظر مجلة المجتمع الكويتية ، ص : 10 ــ 11 ، العدد 115 ــ 19 رجب 1392 ــ 29 غشت 1972 م .

(15) انظر صحيفة الشهاب البيروتية ، العدد 5 ، السنة 9 ــ 1394 هـ ــ 1974 م ، وصحيفة النور المغربية ، السنة 2 ، العدد 13 ــ 1395 هـ ــ 1975 م .

(16) راجع د. عزام (عبد الله) صحيفة الشهاب البيروتية ، ص : 8 ، العدد 5 ، السنة 8 ــ 1394 هـ ــ 1975 م .

كرمه ، فقد كان العطار يزوره في منزله في حلوان كثيرا ، وكانت اثاث غرفة الاستقبال متواضعا ، لان حالة (سيد قطب) المادية لم تكن تسمح له بتحسينه، وزاره ذات يوم فوجد عنده أثاثا جديدا جميلا فسر بهذا التغيير ، ثم زاره مرة اخرى فوجد اثاثا قديما فاستغرب وبعد الحاح منه على (سيد قطب) ليعرف حقيقة الامر اجابه بانه باع الاثاث الجيد وقدم ثمنه مساعدة لاحد اخوانه ليتمم مصروفات زواجه ، وقال له : ان ما معك من المال لا يكفي لنفقات الزواج ، فاذا انفقته عشت فقيرا معدما ، فاستعن بمالك على حياتك العائلية القادمة وانا اتبرع بكل نفقات الزواج .

وكان الذي تبرع به هو ثمن الاثاث الجديد»(17).

وقد حدثني أحد الفضلاء ـ وقد كانت له بسيد قطب صلة وثيقة ـ عن حادثة تدل على نزاهة سيد قطب وهي أقرب الى الخيال ، قال : « اتصل بي سيد قطب تلفونيا ذات يوم وطلب مني ان آتي الى منزله سريعا ورجاني ـ باستحياء ـ ان احضر معي بضعة عشر جنيها لانه مريض لا يملك ثمن الدواء ، قال فذهبت الى منزله مسرعا ورأيت هناك مشهدا عجيبا واقسم لقد دهشت مما رايت ، كان مع (سيد قطب) في الغرفة سفير دولة عربية بترولية وامامه حقيبة مليئة بالاوراق المالية من مختلف الفئات تبلغ عدة آلاف وهو يرجو (سيد قطب) بحرارة ان يأخذها فهي هدية من دولته له لانها تعرف منزلته ومسؤولياته وتريده أن يستعين بها على اعباء حياته ، ويمول بها مشروعاته الادبية والفكرية ، ويتابع الاستاذ الفاضل حديثه قائلا : ونظرت الى (سيد قطب) فاذا به حزين مكتئب ، ثم رد هدية السفير بحزم وبدأ الغضب عليه وهو يخاطبه : لا ابيع نفسي وفكري وعقيدتي باموال الدنيا كلها فأعد اموالك الى حقيبتك ، ثم التفت سيد قطب الي وقال : هل احضرت ما طلبته منك ؟ فناولته المبلغ ففرح به كثيرا ، ولما عرف السفير قصة المبلغ خرج محتارا متعجبا مما راى وقال ان كثيرا من قادة الراي والفكر والادب يأخذون من دولتي هدايا مالية باستمرار ولكن (سيد) من طراز وحده » (18) .

وهذه النزاهة النادرة والصرامة في الحق هي التي دفعت طه حسين الى أن يقول عنه في تقديمه له للحضور حينما القى محاضرة في نادي الضباط سنة 1952 : (ان في سيد قطب خصلتين هما المثالية والعناد) ، وليس من شك ان طه حسين يقصد بالعناد في تقديمه للشهيد الثبات على الحق . ورفض كل ما يخالفه (19) .

على درب الله :

عند ما عاد (سيد) من (امريكا) عام 1370 هـ موافق 1950 التحق بوزارة المعارف العمومية مراقبا بمكتب وزير المعارف اسماعيل القباني (20) ، وفي عام 1372 هـ موافق 1952 م نقل الى منطقة القاهرة الجنوبية ، وفي هذا العام نفسه عاد للعمل مراقبا مساعدا بالبحوث الفنية والمشروعات ، وقدم استقالته وحاول الوزير ان يبقيه بجانبه ليستفيد من علمه وخبرته ، ولكن بدون جدوى .

عاد (سيد) يحمل في عطفيه قبسا من الايمان الحي المتوهج على عكس ما كان يظنه رجال الحكم حينذاك ، اذ غيرت هذه الرحلة تصور (سيد) نحو الحياة تغييرا جذريا .

لقد كان اقصاء (سيد) الى (امريكا) في مهمة دراسية اخراصا لقلمه الثائر على الاوضاع الفاسدة كما سلف القول ، وكان في الوقت نفسه خيرا واي خير استأثر الله به في علمه الازلي ليظهره في الوقت المناسب : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون » (21) .

---

(17) ص : 183 .
(18) ص : 184 .
(19) ص : 185 .
(20) لم أقف على ترجمته .
(21) البقرة : 216 .

نعم كان في ذلك خير واي خير ، اذ وقع تحول ــ كما سبق ــ في مسيرة حياته الفكرية ، فقد شاهد فرحة الاوساط الامريكية باغتيال الامام الشهيد حسن البنا ، وتحادث مع رجل المخابرات الانجليزية (جون هيوورث) (22) الذي ادعى الاسلام وحاول ان يغريه فعرض عليه ان يترجم كتابه : (العدالة الاجتماعية في الاسلام) جزاء عشرة آلاف دولار فرفض العرض المغري وسلم الكتاب الى المجلس الامريكي للدراسات الاسلامية لترجمته مجانا وتولى استاذ بجامعة (هالفكس) (بكندا) المستشرق (يوحنا جون . ب هاردي) (23) ترجمته ، كما راح هذا الجاسوس يحاول ضمه اليه بشتى الوسائل ، من ذلك انه صرح له بان مصر مقبلة على خطر ان تولت جماعة (الاخوان المسلمين) الحكم ، اذ ستعزل مصر عن حضارة الغرب وتفقد بذلك مكانتها الحضارية، وتمنى منه ومن امثاله من المفكرين ان يقفوا سدا منيعا في وجه تيار هذه الجماعة ، ورجاه ان يقلع عن هجماته على (بريطانيا) ، لان (بريطانيا) ان غادرت مصر فان (أمريكا) لن تتوانى عن ان تحل محلها ، وبذلك يكون قد حل استعمار اشد عداء لمصر من (بريطانيا) (24) .

من خلال هذا الاحداث التي جرت لـ (سيد) تبين له ان جماعة (الاخوان المسلمين) على الحق وفي هذا يقول : « قلت في نفسي الآن حصحص الحق وايقنت ان هذه الجماعة على الحق البين ولم يبق لي عذر عند الله ان لم أتبعها ، فهذه (أمريكا) ترقص على جمجمة (حسن البنا) لمحاربة (الاخوان) فصممت في قرارة نفسي ان انضم الى (الاخوان المسلمين) وانا لم اخرج بعد من منزل رجل المخابرات البريطاني » .

لاجل ذلك انتسب الى جماعة (الاخوان المسلمين) ، واتجه الى العمل الاسلامي فوجد في هذا المضمار حقلا ممرعا يلبي فيه رغبته الملحة ، وتولى في هذه الجماعة المباركة رئاسة قسم نشر الدعوة كما تولى رئاسة تحرير جريدتها ، وانتخب عضوا في مكتب ارشادها ، وبالجملة اصبح (سيد قطب) رحمه الله مفكر الجماعة وكاتبها المفدى بلا منازع واحد زعمائها بلا مدافع .

وسار على بركة الله في عمله الاسلامي يدعو الى الله تعالى ويشحن النفوس بالتصور الاسلامي الحق، ويستحث الركب الرباني على المضي في طريق الله بنشر الاسلام في صورته المشرقة التي عجز الكثير عن ابرازها على هذه الصورة ، وتوالت اعماله الاسلامية تملأ الاسواق وتبهر ذوي الاختصاص وتروي الشباب المتعطش ، وتأخذ بيده الى الربع الدافيء الامين ، وسيأتي الحديث عن اعماله تلك مفصلا ان شاء الله تعالى .

ونظرا لاستفاضة شهرته فى العمل الاسلامي فان الاستعمار الانجليزي منعه من الدخول الى (الاردن)، وذلك حين انتدبته لجنة حلقة الدراسات الاجتماعية المصرية لتمثيلها في مؤتمر حلقة الدراسات الاجتماعية المنعقد في (دمشق عام 1373 هـ موافق 1953 م) الذي القى فيه عدة محاضرات من بينها محاضرة تحت عنوان : (التربية الخلقية كوسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي) ، وبعد انتهاء المؤتمر اتجه الى الاردن زائرا فمنعته السلطة الاردنية على الحدود بامر القائد الانجليزي (كلوب) (25) من الدخول .

ورشحته الجماعة لمكانته الفكرية لتمثيلها في المؤتمر الاسلامي الشعبي المنعقد في القدس وذلك سنة 1373 هـ موافق 1953 م وسارت الحياة بالمخاطر ، مزروع بالغام ، فقد خاض قبل ذلك معركة الحرية والعدالة الاجتماعية .

(يتبع)

---

(22) لم اقف على ترجمته .

(23) لم اقف على ترجمته .

(24) صرح بهذا شقيق سيد الاستاذ محمد قطب وانبته الدكتور عبد الله عزام في البحث الذي يعده عن (سيد) ، انظر الخالدي (صلاح) سيد قطب الشهيد الحي ص: 136 .

(25) لم اقف على ترجمته .

دراسات في الأدب المغربي (12)

الفكر والثقافة في عهد الموحدين

للأستاذ عبد الكريم التواتي

نحب ـ بادىء بدء ، وقبل تحديد موقف الموحدين من اللغة والآداب شعرا ونثرا ، ان نشير الى ان الموحدين ربما فكروا في ادخال تعديلات جذرية على علم القواعد العربية ، تماما نفس المحولات التي هم بها المحدثون ، من حيث القواعد الاملائية والنحوية والصرفية .

وهكذا أوعزوا الى ابي مضاء بوضع مؤلف جديد في القواعد ، ويدعونا ذلك الى التساؤل عما اذا لم يكن لذلك علاقة بتمسكهم باللهجة البربرية ، فارادوا بهذا الاصلاح تقريب اللغة العربية من هذه اللهجة حتى تتمكن الجماهير البربرية من تفهم حقيقة المبادىء الموحدية التي وضعت اساسا بالعربية نظرا الى ان منطلق مؤسس الدولة ثقافيا كان منطلقا عربيا .

لقد ثبت تاريخيا انهم كانوا لا يولون المناصب الاساسية في المجال الديني الا الذين يتقنون البربرية ، وانهم لهذا السبب عزلوا خطيب القرويين ابا محمد مهدي بن عيسى ، وعينوا مكانه ابا الحسن بن عطية الذي كان يتقن اللهجة البربرية ، فهل في اقدامهم على تجديد منهاج القواعد ، كانوا يهدفون ـ كما قلنا قبل ـ لاحداث طريقة تخضع العربية للبربرية او العكس ؟

على ان مبدأ الاهتمام بالبربرية لدى قادة هذه الدولة هو ذو هدفين اثنين :

الاول : حماية اللغة الام ، لغة التخاطب ، اذ يجب ان لا ننسى ان هذه الدولة في اطارها العام دولة بربرية ، وان ادعى مؤسسها وخلفه الانتساب الى البيت النبوي ، ذلك لان هذا الادعاء ـ كما أشرنا فيما مضى ـ كانت تقتضيه الفكرة السائدة لاختيار أمراء المؤمنين ، والتي تشترط ـ كما هو معلوم ـ لاثبات احقية الخلافة .

الثاني : استمالة الجماهير الشعبية التي كانت ما تزال اكثريتها لتلك العهود من عناصر السكان الاصليين اى البربر ، وبالتالي تملقهم بالتظاهر بالزام الدولة العاملين معها في الميادين ذات الاحساس الجماهيري ، للتجاوب مع الرغبات الشعبية ، فالتزامهم بالخطيب المتقن للبربرية ، والامام الذي يحفظ التوحيد باللسان البربري ، هو قطعا لتحقيق هذه الاستمالة ، ولتاكيد هذا التملق .

على انه ليس من المستبعد ان يكونوا قصدوا بذلك ايضا نكاية العناصر العربية ، وخاصة تلك التي لم تكتف بمجرد استهجان مبادىء وعقائد الموحدين نظريا ، وانما ناوأوهم جهارا ، وحين اخفقوا في ميدان المناواة الانتقادية حاولوا التطويح بالدولة نفسها ، اذ لم تكن ثورة ابن هود التي كانت قامت بسلا وهددت الدولة بالمحق ، وثورة سبتة بزعامة القاضي عياض ، ـ وان تسترتا بالدين ـ لم تكونا تنشدان سوى

القضاء على أساس الدولة الموحدية التي اظهرت منذ منطلقها عدم رضوخها لآراء الفقهاء المالكيـــة ورجال الدين الجامدين .

فكان لزاما على الموحدين أن يعملوا للقضاء على كل ثورة من هذا النوع باحدى وسيلتين اثنتين ، او بالوسيلتين معـــا .

الاولى : التقليل من شان مثيرها شعبيا ، عـــن طريق تملق هذه الجماهير والتظاهر بالحفـــاظ على اعرافها وتقاليدها ، وفي مقدمة كل ذلك اللســان الام، والمحافظـــة عليـــه .

الثانية : اجتثات جذور الثورة بابعاد عناصرها الحية عن مراكز الدولة الحيوية عن طريـــق اشتراط اتقان هذا اللسان الشعبي ، وبالاخص في المهام الاكثر اتصالا بالشعب كالامامة والخطابة .

واعتناء الموحدين المتزايد بالشعراء السابحين في فلكهم لم يكن عن رغبة مخلصـــة في نشر اللغـــة العربية وآدابها ، بقدر ما هو شراء لالسنة هـــؤلاء الحداد وقطع الطريق على من يحاولون استغلال هذا الميدان للنيل من الموحدين .

ولكن نبادر الى القول بان افتراضاتنا تلك ، لا تعني البتة ان الآداب العربية انحســر مدها لعهد هذه الدولة ، او تضب معينها ، او اهملت من حياة امـــراء هذه الدولة ومجالسهم ومجتمعاتهم ، لا ، ولا ، ذلك لان الواقع اثبت واكد ان الدولة الموحدية شجعـــت هذا الميدان بطريقة غير مباشرة او مباشرة ومتعمدة، وان شئت فقل ان الموحدين كانوا ينهجون موقفين ، فيما يخص المشتغلين بالفكر وشؤون الثقافة والادب والشعـــــر .

وهكذا نلاحظ ان دولة الموحدين ، من وجهـــة افكارها الاساسية ومبادئها الاصيلة ترى ان لا تتهاون مع اي شيء يمكن ان يوقف انطلاقها ، ومن هنا جاء ما رايناه من مناهضة المذهب المالكي وكتب فروعـــه ومناهضة حتى الرجال القيمين على هذه الفروع .

وهي من جهة اخرى تفيض خيراتها على اولئك الذين يتخذون من الآداب العربية والشعر وسيلـــة للتكسب عن طريق الاشادة بمآثر الموحدين ، ومبادئهم العقيدية ، واعان هذا الفريق الثانـــي الاستعدادات الادبية التي كان يتوفر عليها قادة الدولة انفسهم ، فقد كان كل من الزعيم الروحي لهذه الدولة ابن تومرت وخلفه عبد المومن والخلفاء الثلاثة بعدهم ، كان هؤلاء على جانب محترم ان لم يكن عظيما من الثقافة الفكرية العربية ومن الآداب العربية كما سنرى .

وهكذا اشادت مراجع التاريخ الادبي المغربية بهذا المد الفكري الذي ارفده الموحدون بعطاءاتهم ، وامدوه باهتماماتهم المتزايدة .

على ان الواقع الادبي الذي تجسمـــه الآثـــار الشعرية المتبقية ـــ من ذلك العصر ، والموجودة بين ايدينا قد يؤيد ما تشيد به تلك المراجع والمستندات عمـــومـــا .

قال المراكشي في ابي يعقوب تلميذ ابي اسحق ابراهيم بن عبد الملك اللغوي المعروف بابن ملكون :

(.. انه اعرف الناس كيف تكلمـــت العـــرب واحفظهم لايامها ، ومآثرها ، وجميـــع اخبارهـــا في الجاهلية والاسلام ، واحسن الناس الفاظا بالقرءان واسرعهم نفوذ خاطر ، في غامض مسائل النحـــو ، واحفظهم للغة العربية ، وكان يحفظ احد الصحيحين، ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة، وبدا بعلم الطب ، ثم تخطى ذلك الى ما هو اشرف منه من انواع الفلسفة ، وامر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي) .

وكان حبه للعلم ، وشغفه بجمع الكتب ، يدفعه احيانا لمصادرة بعض المكتبات الخاصة كما فعل مع ابي الحجاج المراني .

قال فيه ابن خلكان وهو يصف هذا الشغف :

(.. وكان ميله الى الحكمة والفلسفة اكثر من ميله الى الادب وبقية العلوم) .

ثم من الاشياء الثابتة تاريخيا انه في عهد دولة الموحدين احدث نظام تفرغ العلماء للبحث واحيـــاء

التراث ، ومن كلمات المراكشي في هذا الموضوع وهو يتحدث عن تقدير يوسف لابن طفيل : (.. وكان ياخذ الجامكية) اي راتب موظفي الدولة ، مع عدد اصناف من الخدمة والاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء .

ولمعرفة مدى اهتمام يوسف بالفلسفة نورد كلمة ابن رشد فيه ، وهو يتحدث عن ذكرياته في اول يوم اتصل به فيه ، قال بعد ذكره هيبته هو من الحديث امامه :

(... فالتفت الي ابن طفيل ، وجعل يتكلم على المسالة التي سالني عنها ، ويذكر ما قاله ارسطو طاليس ، وافلاطون ، وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم اظنها في احد من المشتغلين بهذا الشان المتفرغين له) .

ونقل الدكتور عبد الله العمراني التطواني عن الكاتب الاسباني المعاصر (بالينيثا) في شان تواصل الحركة الادبية لعهد الوحدين هذه الكلمات :

(ولم يتوقف تقدم الاداب في اثناء ذلك كله، بل بلغ من كثرة الشعراء الذين هنأوا ابا يوسف يعقوب المنصور بقصائد من الشعر الفصيح والزجل الدارج ان امر بأن لا ينشدوه الا البيتين الاولين من قصائدهم) .

ويقول هذا الكاتب الاسباني بعد ذلك : (بينما الشرق كان يهلك نتيجة اعاصير من الوحشية ، فان عرب المغرب كانوا ينمون الثروة الروحية لاسلافهم ويقدمونها للعالم كله دون تمييز الاجناس والعقائد ..)

ويقول روم لاندو : (حتى اذا اصبحت شمس العالم الاسلامي في الشرق الادنى تنحدر للافول منبلج كان الطبيب العظيم كثيرا ما يحتل منصب الوزارة او منصب المستشار الشخصي للامير الحاكم) .

ونفس الكلمات وردت قديما على لسان محمد بن الجلاب الفهري في حديثه عن الاشعار التي مدح بها هذا الملك اثر غزوة الاراكة التي حدثت يوم الاربعاء 9 شعبان سنة 591 هـ ــ 1194 م) قال : ... وورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، فلم يتمكن من كثرتهم ان ينشد كل انسان قصيدته ، بل كان يختص منها بانشاد البيتين او الثلاثة المختارة ، فانشده احد الشعراء :

ما انت في امراء الناس كلهم
الا كصاحب هذا الدين في الرسل
احييت بالسيف دين الهاشمي كما
احياه جدك عبد المومن بن علي

فامر له بالفي دينار ، ولم يصل احدا سواه ، لكثرة الشعراء وانتهت رقاع القصائد وغيرها الى ان حالت بينه وبين من كان امامه لكثرتها) (1) .

على ان التاريخ يحدثنا عن ظاهرة مماثلة حدثت لعهد عبد المومن بن علي ، واثر عبوره جبل الفتح ــ جبل طارق ــ في طريقه الى الاندلس لاول مرة سنة (538 هـ) فقد توافد عليه الشعراء باستدعاء منه ابتداء ، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، فقد كانوا يستأذنون ، فيأذن لهم ، وتوافدوا عليه من مختلف اصقاع الامبراطورية المغربية يمدحونه .

وذكر المراكشي ان ابن حبوس الشاعر الفاسي وامراء شعراء عصره كان اول من انشده لاميته التي سنوردها ان شاء الله عند حديثنا على حياة وآثار هذا الرجل التي مطلعها :

بلغ الزمان بهديكم ما املا
وتعلمت ايامه ان تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا
وجد الهداية صورة فتشكلا

ثم تعاقب كل من الشريف المرواني الاصم ، المدعو الطليق ، ثم ابن سيد الملقب باللص ، ثم ابو عبد الله محمد بن غالب البلنسي الوزير الكاتب المعروف بالرصافي ، وكان عمره يومئذ لما يتجاوز العشرين ربما .

---

(1) (دعوة الحق) : ص 194 ــ العدد 2 ــ السنة 9 .

وقد انشده الطليق بائيته المستوحاة من بائية ابي تمام في مدح المعتصم بفتح عمورية والتي مطلعها:

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

وبائية المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة والتي مطلعها :

يا اخت خير اخ يا بنت خير اب
كناية بهما عن اشرف النسب

ويحكى ان عبد المومن عندما القى الطليق قصيدته او السطر الاول من مطلع هذه القصيدة الذي يقول فيه :

ما للعدا جنة اوقى من الهرب

اخذته نشوة الطرب فصاح الى اين المفر الى اين ، فاتم الطليق البيت وقال :

اين المفر وجيش الله في الطلب ؟

واضاف :

واين يذهب من في راس شاهقة
وقد رمته سماء الله بالشهب

حدت عن الروم في اقطار اندلس
والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فاهتز عبد المومن استحسانا وانتشاء وقال : بمثل هذا تمدح الخلفاء ، فكانت كلمته هذه مرسوما بمناداته فيما بعد باسم الخليفة .

اما ابن سيد اللص فانه لتحمله البديع في مطلع قصيدته التي وصفت بانها اروع ما قيل في المناسبة بحثا عن براعة استهلال ، فقد اسكته عبد المومن بمجرد انشاد بيتين اثنين منها وهما :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر الى الجبل الراسي على جبل

انى استقر به انى استقل به
انى راى شخصه العالي فلم يزل

وهذا الاسكات من عبد المومن المقرون بقوله للشاعر:لقد ثقلتنا يا رجل، قد يوحي بأن عبد المومن كان ذواقة للشعر المبسط المطبوع ، وانه يبغض التقعير والتكلف والتمحل ، وقد يكون ايضا دليلا على أن الرجل لم يكن يفهم الشعر وأساليبه التعبيرية فحسب ، ولكنه كان ينتقد ، ويفحص الجيد من الرديء ، اشكالا قبل المضامين لان الجرس الموسيقي في الشعر اساسي لجعل الاذن تستلذ وقعه ، والنفس تطمئن اليه ، خاصة اذا علمنا ان المعنى نفسه الذي طرقه اللص عالجه الشاعر الطليق ، فما استثقله عبد المومن ولا استهجنه ، قال الطليق في هذا المعنى من قصيدته بالمناسبة :

وطود طارق قد حل الامام به
كالطور كان لموسى ايمن الرتب

لو يعرف الطود ما غشاه من كرم
لم يبسط النور فيه الكف للسحب

ولو تيقن باسا حل ذروته
لفار كالعين من خوف ومن رهب

ويلبس الدين غضا ثوب عزته
كأن ايام بدر عنه لم تغب

ولكن لما اختلفت طريقة التناول اختلف معه حكم الذوق ، ولئن دل موقف عبد المومن من الشعر الرجلين على شيء فانما يدل على انه ليس مجرد ذواقة صرف ، ولكنه ايضا صيرفي دقيق الملاحظة ، يلمس نبضات الوقع الموسيقي التي تصحب العرض والالقاء وتكيف المضمون والعطاء .

على انه ليس من المستبعد ان يكون عبد المومن في غير هذه المكانة من التذوق والنقد لرائع الشعر وجيده ، وانما يكون تأثره لابن حبوس لانه الشاعر المعترف به رسميا .

وكم وددنا لو اننا عثرنا على قصيدة ابن اللص حتى نتعرف على حقيقة ما قال المراكشي عنها من : (... انها من خيار ما مدح به لولا انه كدر صفوها

بهذه الفاتحة .. وهي من حيث مكانتها الشعرية اجود معاني من ابيات ابن حبوس، ولكن مطلع هذا كان رائعا من حيث فخامة الالفاظ، وهذا الاسلوب الاستفهامي الانكاري الغريب .

أما الرصافي فقد انشد هو الآخر قصيدة نالت رضى عبد المومن بدليل استماعه اليها، مما قد يفيد بأن عبد المومن انما استثقل قصيدة اللص لانه لم يكن من حيث العمق العربي بالدرجة التي يتفهم معها بسهولة معاني القصيدة .. ثم لا ندري ما اذا كانت قصيدة الرصافي نالت اعجاب عبد المومن أم لا، ومن أبياتها :

لو جئت نار الهدى في جانب الطور
قبست ما شئت من علم ومن نور

وينهي قصيدته بقوله :

فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبسا
والارض قد غرقت من فور تنور

وانما هو سيف الله قلده
اقوى الهداة يدا في دفع محذور

فان يكن بيد المهدي قائمه
فموضع الحد منه حد مشهور

والشمس ان ذكرت موسى فما نسيت
فتاة يوشع قماع الجبابير

وعلى كل حال فالاخبار التاريخية تؤكد جميعها ان دولة الموحدين تبنت قضية الادب والشعر واسبغت عليها ثوب الرضا وشملتها بالعناية .

ولا غرابة في ذلك ما دامت هذه الدولة قد حققت من الرخاء الاقتصادي والازدهار المالي ما اشرنا اليه سابقا، فكان اجل ميدان يمكن ان يسجل لها خلودها الدائم هومجال الادب والشعر والثقافة، وصدق عمر بن الخطاب حين قال لابن هرم بن سنان فيما حكوه من ان صلات أبيك فنيت، اما شعر زهير فلن يزال خالدا مخلدا ما دامت السماوات والارضون .

وهكذا تبنت الدولة الموحدية ضمن اهتماماتها العليا الادب والشعر، لا بالرضى والصلات فحسب، ولكن - كما راينا - بدعوة الشعراء في كل المناسبات، وبالحاح، الى الاسهام في عديد المجالات التي تهتم بها الدولة وتعتبرها من قضاياها العليا والكبرى، بوصف ان الشعراء كانوا - وما يزالون - التاريخ الحي الباقي والسجل الخالد الناطق بأعمال الدولة التي احتضنتهم، وبوصف ان آثارهم هي الصورة المرئية المحسوسة لتلك الاعمال .

ومن هنا سن الموحدون سنة دعوة الشعراء الى القاء اشعارهم بحضرتهم، وانشادهم ما تجود به قرائحهم في كل المناسبات .

وقد تحدثنا قبل، وباسهاب، عن كيف ان عبد المومن نفسه كان اول من سن هذه السنة غداة توقفه في جبل الفتح - جبل طارق - عبر طريقه الى الاندلس ويوم ابته منها، فما كان من الخلفاء الموحدين بعده الا ان ساروا على سننه وسلكوا سبيله وانتهجوا طريقه .

وهكذا رأينا مثلا ان ابا يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المومن حين اوبته من الغزوة العظمى غزوة الارك، تلك التي مرت احداثها كما أشرنا قبل في جمادى الآخرة سنة (591 هـ) وهزمت فيها جيوش الاسلام جيوش (الادفونش) التي قيل ان فرسانها كانوا ينوفون على الخمسة والعشرين الفا، وان مشاتها تجاوزوا لمائة الف عدا تجار اليهود الذين كانوا يصحبونهم أملا في اشتراء اسرى المسلمين، رايناه يجلس للوفود المهنئة في قبة مشرفة على نهر اشبيليا الاعظم ويدعو الشعراء لانشاده أشعارهم .

ويذكر التاريخ كيف ان من بين الشعراء الذين حظوا يومئذ برضا ابي يوسف شاعرا صديقا للمراكشي صاحب المعجب يدعى علي بن حزمون، وقد انشده قصيدة صاغها على وزن بحر الخبب الذي كان ابو يوسف يفضله على ما سواه من بحور الشعر، بل وكان يقترحه على الشعراء، ومما جاء في قصيدة ابن حزمون التي انشدها بالمناسبة، وهي قصيدة طويلة منها هذه الابيات :

حيتك معطرة النفس
نفحات الفتح بأندلس

فذر الكفار وماتمهم
ان الاسلام لفي عرس

ا امام الحق وناصره
طهرت الارض من الدنس

ورفعت منار الدين على
عمد شم وعلى اسس

لاقيت جموعهم فغدوا
غرضا في قبضة مفترس

جاءوك تضيق الارض بهم
عددا لم يحص ولم يقس

خرجوا بطرا ، وراء الناس
ليختلسوا مع مختلس

ومضيت لامر الله على
ثقة بالله ، ولم تخس

فاناخ الموت كلكله
بظباة على بشر رجس

سقيت بنجيعهم اكم
وطئوا منهن على دهس

انكان نجا (دانفوشهم)
فالى عيش نكد تعس

اجزيرة اندلس اعتصمي
بامام الامة واحترس

حكمت اسيافك سيدنا
في كل مصر للكفر مسي

لا يخلف ربك موعده
دوخ اقطارهم ودس   الخ . .

قالوا : وفي نفس المجلس حدثت ظاهرة كونية، انشده فيها محمد بن عبد ربه حفيد صاحب كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه ، ابياتا كانت منطلق شهرته .

اما الظاهرة فهي ان ابا يوسف لما تلقى تهانيء المهنئين ، استعرض كتائب جيشه الكامل العدة ، الحسن الهيئة ، واذ سره ما راى سجد ركعتين ، شكرا لله ، وما ان سلم حتى جاءت سحابة فأمطرت مطرا جودا ، تبل منه الناس ، فعد ذلك من طلائع سعود ابي يوسف ، فانشد حفيد ابن عبد ربه في الحادثة الابيات التالية :

بادي الكرامة ، بل بادي الكرامات ، قد شفع الله
آيات بآيات

يا ليت شعري ؟ ما شيء دعوت به ؟ قبل السلام ، ومن
بعد التحيات ؟

شيء تاثرمنه الجو ، فاتصلت من السحائب
رايات برايات

قل : كيف لا يفتح الله البلاد وقد تفتحت لك
ابواب السموات ؟

ثم نسجل انه كان من الطبيعي ان يتناول الشعراء ، في محاولاتهم الشعرية اهتمامات الدولة الحربية بالدرجة الاولى ، وان لا يحيدوا حين تناولهم الحياة العامة ، اجتماعيا وعقديا ، عن دائره معتقدات الدولة التي ترعاهم او عن آرائها السياسية ، وخاصة وهؤلاء الشعراء ـ كما قلنا ـ كانوا على الدوام محط اهتمام هذه الدولة ، ومكان عنايتها الفائقة .

فاس : عبد الكريم التواتي

معركتنا.. فكرية

للأستاذ أحمد تسوكي

وجدت الحياة ووجد الانسان من اجل ان يتصارعا صراعا فيه وحدة وانسجام وتآلف ، حتى لا يكون هناك على الارض غالب او مغلوب ، لان معنى الحياة ان يوجد انسان يتنفس هواء الحرية لينتصر على نفسه وعلى الجهل والكراهية والحقد والغضب ، وهي أعداء الانسان الاولى ، ومعنى الانسان ان تقوم على الارض حياة حرة موفورة الكرامة ، تمنح للانسان حقه في الايمان والارادة والاختيار والطموح ، وتتيح له فرصة التطور والارتقاء الى ما هو افضل له ولنوعه وللحياة جميعا . ولا معنى لحياة بلا صراع شريف ، ولا معنى للانسان بلا ارادة مؤمنة مبدعة .

وبعد ملايين السنين من الوجود ، ما تنفك الحياة نصيرا وظهيرا للانسان المؤمن الخلاق لكي ينجز حلمه ويحقق ارادته ، وما فتىء الانسان متعطشا الى الحياة ومتمسكا بأنفاسها ، ولو شابتها الآلام والمرارة وخيبة الامل ، فالامل اقوى وفسحته أوسع ، وكلما انتصر الانسان وانتصرت معه افكاره واحلامه ورؤاه ، ازدادت الحياة بهجة وزهوا ، وتعاظم فخر الانسان واقباله على مزيد من التحدي والثبات .

فالحياة اذا ، ميدان مفتوح لصراع التصورات والاحلام والهواجس والكوابيس البشرية ، وحلبة واسعة يتقاتل فيها النبل والمروءة والقذارة والسمو والفضائل والرذائل . ومن خلال هذا الصراع والتقاتل تكبر نفس الانسان او تنحدر الى الحضيض بحسب قدرتها على تمثل الجيد والطيب من المبادىء والافكار . ولان طبيعة الاشياء ترفض ان يكون هناك سكون وسكوت في العلاقات الانسانية وتفاعلها وتصادمها ، ولان طبيعة الامور والقضايا تأبى ان يقف الفكر الانساني موقفا ميتا جامدا لا اثر للحياة فيه ، فان الصراع والصدام ، حتى فيما بين ادنى الكائنات، ضروريان ولازمان لكي لا تتعطل قدرة الكائن على التقدم والترقي ، ولكي لا تشل طاقته الروحية والمعنوية على التغيير الذي هو حتمية مرتبطة بالانسان وبالحياة وبالوجود معا .

ومما يتنافى ويتناقض مع وجود الفكر ووجود الانسان ووجود الحياة في وحدة متناسقة متآلفة ، أن نتصور قيم الفكر والانسان والحياة والوجود قيما مجردة من الترابط والتلاحم فيما بينها ، اي قيما مبنية على هوية ذاتية فارغة من اي محتوى او معنى يربطها بالحاضر والماضي وبالمستقبل ، وبالمكان الذي تتكيف فيه على نحو خاص ومعين ، وبالقدرة على النمو ، والنضج والاكتمال والانحلال .

والفكر في جميع احواله وظروف نشأته ورقيه ، لا ينبت من فراغ ، ولا يأتي من اللاشيء الذي هو العدم ، وانما هو نتاج علاقات واجتهادات روحية

واجتماعية واقتصادية وعمرانية وثقافية متنوعة ومترابطة ومتشعبة ؛ وهو وليد وعي بالذات والتاريخ والواقع والآخرين ، اي انه اشبه ما يكون بكائن يمتص من كل هذه الاوعية والقنوات جرعة ملائمة — في الزمان والمكان — يتمثلها ثم يفرزها لنا أفكارا ونظريات علمية منسقة ، او رؤى واحلاما يبدو عليها من خارج التنافروعدم الانسجام ، ولكنها من داخل متحده منسجمة ، كاكمل ما يكون التوحد والانسجام.

ولربما كان من البديهي أن تلك العلاقات هي التي تفرض — الا في حالات خاصة — على الانسان نوعية محددة من الافكار والتصورات التي تتحول ، بعد ان تخوض معركة الحياة والبقاء والوجود ، الى سلوك معين ، ثم الى تقاليد ثابتة الجذور في الارض ، وربما انتهت الى ان تاخذ شكل حقوق حاضرة الوجود لا تناقش ولا يجادل فيها وفي اصولها وفروعها وادواتها وغاياتها ... ولكن تلك الافكار والتصورات سرعان ما تفقد مع مرور الوقت صلاحيتها للناس وقيمتها في وجدانهم العام ، ليولد من باطنها واقع جديد وعلاقات اخرى ، افكار وتصورات وتقاليد وحقوق اخرى توافق حياة الناس وأمزجتهم وأذواقهم ، ولكنها ليست افكارا وحقوقا ثابتة ، بمعنى انها سوف تتفاعل من جديد وسوف تتصارع وتتقاتل ليولد منها ما يتمشى مع الحياة والامزجة والاذواق المستجدة للناس .

ومن هنا ، فاننا لا نقع في الخطأ حينما نقول ان هناك في حياة الامة فكرا قديما وفكرا جديدا ، ولكن يجب التعامل مع هذه الحقيقة — وهي تكاد تكون مسلمة لا تقبل النقاش — من خلال تطورها هي نفسها ، اي من خلال خضوع هذه الحقيقة نفسها لنفس ما تخضع له الحقائق الاخرى . كذلك ، لا يجب ان نقبل بهذه الفرضية وكأنها حكم نهائي لا يقبل الاستئناف ، وانما الصواب ان نقول ان الفكر « القديم » للامة هو ذلك الوعاء الذي تتمثل فيه قيم الامة ومبادؤها وتصوراتها وحقوقها وواجباتها التي لا تتغير مع تغير الزمن ، ولا تتقلب بنفس السرعة التي يتقلب بها .

فالحرية والكرامة والشرف والحق والنبل والفضيلة وسوى ذلك مما يؤمن به الانسان ويعمل من اجله ويسعى الى تحقيقه ، خط مستقيم قويم في حياة الافراد والجماعات ، وهذا الخط لا ينحرف ولا يتحرف بداع من الدواعي الطارئة التي تفرضها اساليب وانماط الحياة اليومية للافراد والجماعات . فاذا طرا عليه نصيب قليل أو كثير من الانحراف والتحريف ، خرج الخط عن استقامته واصبحت الاهداف والمبادىء الثابتة ذات شان آخر في الحياة البشرية . فالسلام على سبيل المثال ، لا يعني شيئا آخر غير السلام ، صحيح ان اصطناع الادوات المؤدية اليه وتعديل السبل والمناهج المفضية اليه ، قد يختلفان من نمط تفكيري معين الى نمط آخر بحسب القدرة على الابتكار والاجتهاد لاختصار الطريق الى الغاية المرسومة ، الا ان النقطة النهائية في الخط تظل محتفظة برسوخها واصالتها مهما تعددت السبل وتنوعت الوسائل واختلفت المناهج .

اما الفكر « الجديد » ، فهو ما يولد من البيئة الروحية والثقافية والعمرانية للانسان ، وينبثق من تفاعل وصدام العلاقات والتقاليد البشرية ، ويصدر عن رغبة الانسان في التطور وايمانه بالافضل وثقته في المستقبل ، من غير ان يلحق المبادىء الاساسية مساس بأصالتها وعمقها وقوة تعبيرها عن روح الجماعة وضميرها العام .

ان الفكر الذي يتمخض عن البيئة البشرية وعن عناصرها الاولى التي تشكلها وتكونها ، ليس في حقيقة الامر سوى المحرك الرئيسي الذي يدير ويسوس مختلف جوانب الحياة الانسانية ، وما عداه ، ففروع من الاصل ، تستمد منه حجمها وثقلها ووزنها وقيمتها في حياة الانسان ، وفي سعيه الدائم الى التطور والتقدم ونشدان مدارج السمو والارتقاء بهذه الحياة وبهذا الانسان .

وان الامم الواعية بجسامة وخطورة المسؤولية التاريخية والاخلاقية والحضارية والانسانية الملقاة على عاتقها ، في اي ظرف من الظروف ومهما كانت اشكال وضروب التحديات والمخاطر التي تحدق بها والتي تتعبأ بكل قواها لتجاوزها وتذليلها ، لتدرك جيدا ان اليقظة الفكرية ، وتوقد العقل الفعال والمتطور ، هما دعامتا التطور والارتقاء ، وبدونهما لا يمكن اقامة اي بناء سليم القواعد والاسس ، ولا يمكن للامة بدونهما ان تنهض نهوضا سليما وقويما يستند الى جذور ضاربة في العمق والجوهر .

وامتنا العربية في ظروفها المعقدة الراهنة ، تخوض صراعا حادا ومعركة مريرة وشاقة ضد اعدائها الذين هم في الداخل وضد اعدائها الذين هم في الخارج . فهي تحارب اذا في جبهات مختلفة ندعوها بالاصطلاح المعاصر بالجبهات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعقائدية وغيرها .

وحينما نريد ان نعبر عن صراع الامة ومعركتها في الجانب الاجتماعي مثلا ، فاننا نقول انها تخوض صراعا « اجتماعيا » بحتا ، اي صراعا ذا طابع اجتماعي خاص ، له وسائله وادواته ، وله اهدافه ومراميه ، وله خططه وبرامجه ، وله ملامحه ومظاهره ، وله كذلك سلاحه وعتاده . فالصراع الاجتماعي من هذا المنظور ، يقتصر — حتى في تعدد وتنوع جوانبه وجهاته — على ضمان الوسائل والادوات التي تكفل استمرار الحياة الاجتماعية للناس في ظروف حسنة ، لا عوائق فيها ولا تخلخل ولا اضطراب .

وحينما ننظر الى الصراع الاجتماعي من هذا الجانب ، فاننا نحصر مشاكله وقضاياه في نطاق ضيق الحدود من الوجهة الفكرية والحضارية معا ، وهو نطاق يدل دلالة واضحة وعميقة على اننا انما راينا ظاهر المشكل ولم ننفذ الى عمقه ولبه ، واننا لم نعط للفكر — في هذا الصراع المخيف — قيمته الجوهرية التي يستحقها في معركتنا الشاملة ، واننا — اخيرا — آثرنا ان نعالج ظاهرة شكلية واحدة من ظواهر هذه المعركة الشاملة التي تعد الاساس والقاعدة .

ان التاريخ الانساني — بجميع اطواره ومراحله — يعلمنا فيما يعلم ، ان التحولات والتغييرات الجذرية فيه لم تات عن طريق المصادفة ، ولم تات عن طريق الحرب والمواجهة العسكرية ومعاركها فيها ، وانما جاءت اساسا نتيجة لصراع فكري ظاهر او خفي بين مبدا وآخر ، وبين عقيدة واخرى ، اي بين فكرة معينة كانت تبحث عن ذاتها ووجودها وتدافع بكل الوسائل المتاحة لها عن هويتها الجديدة ، وفكرة اخرى سائدة تحاول ان تدرا عن نفسها الخطر الماحق الذي يتهدد وجودها وكيانها .

وفي ظل تحول الافكار والتصورات ، فان الصراع الحضاري لا يتجمد في قالب معين ، وانما ياخذ اشكالا سياسية واقتصادية واجتماعية وعمرانية وثقافية وغير ذلك ، بحكم ان الفكر الانساني ليس عملية تجريدية لا يكمن مجالها الحيوي الا في نطاق العقل والذهن والتفكير فقط ، بل هو انعكاس طبيعي وحتمي لظروف وعلاقات وتفاعلات يقيمها الانسان باختياره او باضطراره مع ذاته ومع المجتمع والحياة والكون والطبيعة والوجود جميعا .

فالصورة الاصلية لذلك الصراع ، اي الوجه الحقيقي له ، لا يتمثل الا في صورة الفكر نفسه في صراعه وصدامه وتفاعله واحتكاكه ، وصورته في تحوله وتجدده وانتقاله من طور راق الى طور اكثر رقيا ، او من طور منحط الى طور اكثر منه انحطاطا .

اما الاشكال والانماط الباقية للصراع ، فليست سوى ظلال والوان وخطوط تتقارب او تتباعد حسب حدة الصراع او خفوته . فالصورة الحقيقية للصراع اذا ، هي صورة الفكر ، ولا شيء آخر سوى الفكر .

لقد تصدى الاسلام في اول عهده لامبراطوريتين عظيمتين كانتا تقتسمان العالم المعروف آنذاك ، وهما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية . فمن اية جبهة تصدى الاسلام لهما حتى اكتسح الحدود الشاسعة وبلغ الى المناطق النائية والارجاء الفسيحة التي لم تكن معروفة لا بالنسبة للرومان ولا بالنسبة للفرس ؟

ان الدولة الاسلامية الجديدة ، بما تاسست عليه من مبادىء قويمة ، وتعاليم سليمة ، مستمدة من القرءان الكريم والسنة الشريفة للرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، لم تحارب الامبراطوريتين العظيمتين من جهة غير جبهة الفكر الجديد الذي جاءت به العقيدة الاسلامية ، اي انها في تصديها وفتوحاتها وغزواتها ضد الفرس والرومان ، طرحت امام المجتمع القديم المتهالك بديلا جديدا يتمثل في المجتمع الاسلامي المبني على الفكر التوحيدي .

ولم يكن بوسع الفاتحين العرب في مشارق الارض ومغاربها ان يقتحموا الاسوار ويدخلوا المدن من ابوابها الواسعة ، او لم يكونوا مزودين بفكر جديد

ينظم الحياة البشرية ويحكم العلاقات الانسانية التي تنمي وتغذي حس الحضارة والتمـدن في ضميـر الانسان ، فكر عام وشامل يمس حياة الفرد وحيـاة المجتمع ويطورهما تطويرا راقيا وساميا من خـلال القواعد والاصول والسلوك والتقاليـد الروحيـة والمادية المثلـى .

وكذلك الشان بالنسبة للحضارة الاوروبيـة الحديثة والمعاصرة التي ارتأت لارساء قواعد نهضتها ان تخوض معركة فكرية شاملة ضد الجمود والسكون اللذين كانا يجثمان عليها نتيجة للظلام الفكري الذي كان يسود اوروبا قبل نهضتهـا .

وحينما بدا دبيب الحضارة الحديثة يدب فـي شرايين الجسم العربي والاسلامي في القرن الثامن عشر ، كانت المعركة الاساسية التي اقتحمتها الامة العربية والاسلامية هي معركة الفكر والتحرر العقلي والتنوير الذهني ، بعد ما ران عليها ظـل الجمـود والركود في الاجتهاد والابتكار . ولـم يكـن ليتاح للاستعمار الاوروبي ان تطا اقدامه الارض العربيـة والاسلامية لو لم يصادف في نفوس اهاليها وسكانها، خمولا في التفكير وشللا في الوعي وانحطاطا في قدرة الانسان العربي والمسلم على الاجتهاد واتباع خطى العلم والحرية الفكرية التي دعا اليها الاسلام وحث المسلمين كافة على ضرورة التطويـر والتجـدد ، ووجوب التفكير المتحرر من قيود العبودية المادية والمعنوية التي لا تصح ولا تجوز في التصور الاسلامي للنهضة والرقي الا للخالق الباري عز وجل .

وبعد ، فان معركتنا الحضارية الراهنة التـي نخوضها من اجل التقدم والارتقاء في كل حقـل من حقول حياتنا ، هي معركة فكرية قبل ان تكون معركة سياسية او اقتصادية او اجتماعية او ما شئت مـن الاسماء والاصطلاحات الشائعة . وانتصارنا في هذه المعركة المصيرية ، رهين بما نوفره للفكر من حرية وانطلاق وتجديد ، ورهين بما نضمنه للفكر من سيادة وقوة واصالة ووضوح .

الا ان ذلك ، لا ينبغي ان يعني اهمال او اغفال الجوانب الاخرى من المعركة ، ولكن يعني بالدرجـة الاولى ان نطلق للفكر عنانه حتى يتحرر العقل العربي والاسلامي من القيود والاغلال الدخيلة والمفتعلة التي الصقها به الاستعمار والتبعية لمظاهر تقدمه المادي الزائف ، والتي تشل وتعطل قدرته على استلهـام العقيدة ومنابعها الصافية ، وعلى العـودة المتطورة – اذا صح التعبير – الى اصالة الامـة ومصـادر نهضتها الاولى . وبعد ذلك ، نستطيع ان نضمـن النجاح والفوز في معاركنا الاخرى الباقية ، باعتبارها معارك جانبية موضوعة على هامش المعركة الاصلية ، وهي معركة الفكر ، فتحرر الانسان وتقدمه وانطلاقه الى مواقع الرسالة المطوق به ، يبدا من الفكر ومن العقل ولا يبدا من شيء آخر .

الرباط : احمد تسوكـي

قراءة في كتاب

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

للأستاذ مصطفى الشليح

1 ـ تمهيــــد :

تنطلق الثقافة المعاصرة ـ لتاكيد مشروعية تاسيسها وممارستها واجرائيتها ـ من موقع التجاذب مع الماضي ، ما دام ذلك الماضي خيطا يصل بينها وبين الحاضر ، وضوءا يرسم ملامح الآتي دون الضياع في متاهات السفر ، ودون السقوط في شرك الانفصام المركب ، ودون التشيؤ والتماهي وفقدان الاصالة وعراقة الذات .

ومن هنا تبرز اهمية التراث ، ليس في تقديسنا له والتبرك به ، واعتباره نقطة البدء والانتهاء ، ولكنه من حيث انه القاعدة الاساس التي تمكن من استمرارية الحضارة من غير اخترام لعقد مقوماتها ومكوناتها وخصائصها .

والحديث عن التراث ليس من الامور المستحدثة في الادب ، لانه حديث استشرى منذ بداية الصراع بين القديم والمحدث في الادب العربي ، وهو حديث يلم ضروبا من الآراء واشكالا من الدعوات تتوحد رمتها حول محور واحد يتعلق بضرورة قراءة التراث ، وتتشعب حول طريقة القراءة .

ولسنا بصدد رصد آفاق تلك القراءة وفاعليتها وغائيتها ، وتحليل ادواتها المعرفية والمنهجية ما دام الفعل ، التشديد على قراءة التراث ، هو ما يهمنا لتاكيد حتمية تعامل الحاضر مع الماضي لاستشراف المستقبل .

وتاسيسا على ما سبق ، فاننا نرى ـ كما يرى غيرنا من الدارسين ـ ان من واجب المثقف المسؤول ان يتوجه الى هذا التراث بحثا واستخراجا من الخزائن ، وتحقيقا ودراسة ونشرا باعتباره قاعدة علمية صميمية تخول لنا انبعاثا معرفيا وحضاريا في آن واحد .

ان المثقف المسؤول يسكنه هاجس التراث ، وبحوطه قلق مبارم يحرض على مجالسة ذلك التراث قراءة وفهما ، تمثلا واستيعابا ، دراسة ونبشا ، توثيقا وتحقيقا ، وتعريفا ونشرا .

ووعيا بتلك المسؤولية التاريخية انصرف الدارسون الى ادبهم ، واهتم الباحثون المغاربة بتراثهم رغبة التعريف به ، وبـ (النبوغ المغربي في الادب العربي) كما يرى كنون ، وتلهبهم حمية ابراز (الخصائص الحنيقية للذات المغربية) كما يقول الدكتور الجراري (1) .

---

(1) الادب المغربي ، ص : 7 .

نقطتان جوهريتان عملتا على اغناء البحث في التراث المغربي ، تنضاف اليهما ثالثة تتمثل في مقاومة الاستلاب الاستعماري ، ومحاولاته التغريبية لاحتواء المغرب عقيدة وحضارة ولغة وفكرا .

واذا كان الباحثون يرون في تصديهم للبحث في التراث المغربي واجبا مقدسا ، فان التعريف بثمرات التصدي ، وما تقدمه من عطاءات واضافات امر لا يقل قداسة ، وشرط من شروط اكتمال الواجب .

بناء على ما تقدم ، نقدم اليوم عرضنا حول (الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى) للاستاذ محمد بنتاويت ، وهو عرض نتمنى الا يقف عند حدود الاستعراض والوصف وسرد المحتويات ، لاننا نطمح الى تقديم كفاية تفسيرية للكتاب مادة ، ونستهدف مقاربة دراسة منهجية فاعلة له تتوسل بالنظرة الموضوعية ، وتتسربل بالروح العلمية المحض .

2 — الكتاب ومحتواه :

يتالف كتاب (الوافي) الصادر عن دار الثقافة بالدار البيضاء (المغرب) سنة 1402 هـ — 1982 م في طبعته الاولى من ثمان وخمسين وثلاثمائة صفحة موزعة بين توطئة ومنهاج ومقدمة وثلاثة ابواب يحتوي آخرها على فصلين .

فاما « التوطئة » فقد ابرز فيها الكاتب — بالخصوص — اسباب القول بادب عربي في المغرب الاقصى ، وعدم تسميته بـ « ادب مغربي » ، وهي وجهة نظر سنناقشها لاحقا .

وخصص « منهاج الكتاب » لطرح مبررات التوسل بالمنهج التاريخي في دراسة ذلك الادب ، وهي الاخرى عرضة للمناقشة .

وكانت المقدمة بسطا لنشأة (الادب العربي في المغرب الاقصى) ، وحصر لبعض مراكزه الثقافية المدينية ، وهي : طنجة وفاس وسجلماسة ومليلية والنكور وسبتة واصيلا والبصرة .

ثم تلا ذلك عرض للادب العربي في المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي الى اواخر العصر الموحدي من خلال ثلاثة ابواب :

الباب الاول : حديث عن الادب الناشىء قبل المرابطين اورد فيه ابياتا للمولى ادريس الثاني ، وسعيد بن هشام المصمودي ، وابراهيم بن ايوب النكوري ، وابراهيم الاصيلي ، وابن غازي الخطيب ، وابن القابلة السبتي ، وبكر بن حماد التاهرتي .

الباب الثاني : عرض لادب القاضي عياض وابن زنباع او ابن بياع .

الباب الثالث : وينقسم الى فصلين :

1) ابن حبوس والجراوي وابو حفص الاغماتي وابو الربيع سليمان الموحدي والشريف الادريسي مؤلف كتاب الاستبصار والمراكشي ويوسف بن الزيات التادلي .

2) ميمون الخطابي وابن عبدون الفاسي ومالك بن المرحل ... الخ .

تلك هي الشخصيات التي احتواها كتاب « الوافي » عرضنا لها دون اثارة ما تطرحه من قضايا و « احكام نقدية » .

3 — زمن تاليفه :

يعد الاستاذ محمد بن تاويت من الرعيل الاول الذي كاد يتخصص في الدراسات المغربية بواسطة تحقيقاته ، وعبر مقالاته المتناثرة في المجلات الادبية، وعن طريق احاديثه الاذاعية ، ومحاضراته الاكاديمية (2) ، مما خول له جمع المادة ودراستها وفق منهج تاريخي سنقف عنده .

ويهمنا الآن — بعد ما وضحنا علاقة الكاتب بالمادة المدروسة ، وهي علاقة تربو على عشرين سنة — ان نستكشف الفترة الزمنية الحقيقية التي الف فيها الكتاب الصادر سنة 1982 م .

---

(2) انظر : توطئة الكتاب ، ص : 5 بكاملها .

ويبدو لنا ان الاستاذ بن تاويت فرغ منـــه في اواخر الستينات (اى بعد سنة 1965 على الاقل ، وقبل سنة 1974) ، وسندنا في ذلك شاهدان :

1 ـ يورد الكاتـــب في الهامش رقـــم 1 من الصفحة 184 اشارة الى ماجستير الدكتور الجراري حول ابي الربيع سليمان الموحدي محيلا القارىء على مقال الدكتور المنشور بدعوة الحق : ابريل ـ ماي 1965 ، مما يؤكد ـ قطعا ـ انه لم يطلع على المؤلف المشار اليـــه .

2 ـ يزكي الكاتب ذلك القطع في الهامش 2 من الصفحة 195 ، حيث ينص ـ في معرض حديثه عن خمريات ابي الربيع نفســه ـ على ما يلي : (سابقين ، واخبرنا بعد ذلك بتاليف الدكتور الجراري فيها ، ولم نطلع على هذا التاليف) .

والتاليف المذكور هو كتاب (الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي : عصره ، حياته ، شعره) ، وهو صادر عن دار الثقافة بالبيضاء في جمادي الثانية 1394 هـ ـ يونيه 1974 م (طبعة اولى) .

اننا نستخلص ما يلـــي :

أ ـ ما بين 1965 ـ 1974 تسع سنـــوات ، وهي سنوات عرف فيها الادب المغربي اهتماما واسعا من لدن الدارسين ، ولا سيما من قبـــل الدكتـــور الجراري منذ نشره للقصيدة سنة 1970 .

ب ـ القول الى السماع والاخبار هما اللذان نبها الاستاذ بن تاويت الى تاليف الدكتور الجراري ق موضوع ابي الربيع سليمان الموحدي يحيلنـــا على اخبار بصري تم عبر مجلة (دعوة الحق) والمقـــال المشار اليه فيهـــا .

ج ـ ان وجود الملاحظتين في هامشين يوضح ان المسودات كانت جاهزة للطبع ، والا لاشيـــر الى المرجع المذكور في متن الكتاب على غـــرار ما ورد بالنسبة لمراجع اخرى .

● وتأسيسا على المعطيات الواردة الذكـــر نرى ان الزمن الحقيقي لتاليف « الوافي » يرتبـــط بالستينات ، ولو انه طبع سنة 1982 ، وعلى الرغـــم من عدم تصحيح المؤلف بتاريخ التأليف لوضع الكتاب في مداره الحضـــاري ـ المعرفي .

4 ـ اشكاليـــة العنـــوان :

يتفجر السؤال من الفور : الوافي ؟

ـــ ما هي دلالة هذا الجزء الاول من العنوان ؟

ـــ هل توحي بالسعة والشمولية والامتداد ؟

ـــ هل ترمز الى كون المؤلفات السابقـــة التـــي درست الادب المغربي تشكـــو من النقـــص والهـــزال ؟

ـــ هل تعني ان الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى مكتمل ومستوفى من جميع المناحي ؟

ـــ اذا كان الامر كذلك ، فما مقدار تلك الشمولية في حقل ادبي مشهود له بالتحول وعدم الثبات؟

ـــ وبالتالي ، ما هو المجال الذي يمـــده هـــذا الوافـــــي ؟

● انه (الادب العربي في المغرب الاقصى) الذي يرفض الكاتب منذ البداية ان يسميه (ادبـــا مغربيا) انطلاقا من حتمية دراسة ذلك الادب وفـــق نظرة قومية للادب : (وكذلك لا تقول «الادب المغربي»، كما قلنا بذلك ، وكتبنا فيه باحدى المجلات تحـــت عنوان : ظهور الادب القومي العربي) ، لان هذا الادب الفصيح ليـس له من مميزات خاصة به) الوافي ص 6.

يمكن للقارىء ، انطلاقـــا من هـــذه القولـــة استخلاص ما يلي :

1 ـ يتحدث الكاتب عن ادب فصيح ، ومؤدي ذلك انه يؤطره داخل حقل ادبي معين لغته الفصحى ، ونتساءل عن موقع الادب الشعبي من كل ذلك .

2 ـ يحدد مجـــال ذلك الادب في المغـــرب الاقصى ، ويطرح هذا التحديد عدة تساؤلات :

أ ـ ما هو موقف الاستاذ بن تاويت من « الادب الوافد » كما يسميه الدكتور الجراري ؟

ب ـ أين يوضع « الادب » الذي قيل خارج المغرب الاقصى ابان الامتداد المغربي شرقا وشمالا وجنوبا ؟

ج ـ ما هي مقاييس تصنيف ذلك الادب ؟

1 ـ هناك القائل ومقياسه الانتساب .

2 ـ هناك المقول ومقياسه صدوره عن القائل .

3 ـ هناك مكان القول ومقياسه الاطار الجغرافي الذي انجز داخله .

● يبدو لنا ان تحديد جغرافية سكان القول الادبي في عهود اتسمت بالامتداد يكسب « الادب المغربي » غموضا ، ويخفي غاية من الاسئلة حوله ، ويمهد لاعطاء تأويلات عميقة حول هويته الحقيقية ، ويستدعي القيام بأبحاث علمية ـ انتربولوجية ثقافية لحصر ذلك الادب .

5 ـ المنهج التاريخي .. لماذا ؟

ليس من دراسة انجزت حول الادب العربي عموما ، والمغربي منه خصوصا الا وتمثلت المنهج التاريخي ، ووظفته ان رهوا لو اشتدادا متوسلة بمعطياته لفهم الادب ودراسة طبيعته ومكوناته . وتلك الدراسات توزعت بين ما كان المنهج التاريخي هو المعول عليه ، وما كان ذلك المنهج طرفا من منهج تكاملي استعين به لتحقيق نظرة عامة ودراسة شمولية .

وما دام كتاب « الوافي » يدرس « الادب العربي في المغرب الاقصى » ، وما دام تاريخ المغرب قد شهد فجوات اجمع معظم دارسيه على انها اثرت في ادبه ، فان المنهج الاليق لدراسته وتناوله ـ حسب دعواهم ـ هو المنهج التاريخي .

ولن نقف عند ظاهرة امتزاج الادب بالتاريخ جمعا ونهجا ، ولكن الذي يشغلنا هو سر احتفال الاستاذ بن تاويت به ، وانصرافه اليه دون سواه .

في الصفحة السابعة من « الوافي » يأتينا الرد صريحا : (ان المنهج التاريخي ، في جل الدراسات، خصوصا النظرية منها ، سليم قويم دعا اليه جمهرة من الفلاسفة في الحديث والقديم ، واستعملوه في دراساتهم الفلسفية ، فاتى بالنتيجة المطلوبة الصحيحة التي لا تحتمل الجدال والتشكك ، لانها مبنية على مقدمات) .

والمستفاد من ذلك ان الكاتب يدعو الى « منطقة » الدراسة الادبية : (فهي دراسة صاعدة في النشوء والارتقاء لهذا الادب الذي تعتبر مراحله الاولى مقدمات له، صغرى فكبرى ، تتطلع كلتاهما الى النتيجة التي تعمل لها ، ويعمل الجيل الصاعد كذلك في غير فتور ، وفي غير لغوب منه) ص : 7 ـ 8 .

من خلال التوضيحين الآنفي الذكر نستقي ما يلي :

1 ـ ان الاستاذ بن تاويت يتوسل بالمنهج التاريخي ، لانه معتمد في جل الدراسات ، وكان التوظيف المعتمد في حقول معرفية أخرى كاف لكي يوظف في دراسة الادب المغربي .

2 ـ ان انبناء الدراسة على المنطق والمقدمات كاف لسوق نتيجة « حتمية » ، ولا يخفى ان هاته الاطروحة لا يمكن ـ في اعتقادنا ـ ان تنسحب على حقل هو عرضة للتفسيرات والتاويلات كالحقل الادبي .

3 ـ ان تاريخ المغرب لم يدون فيما سبق لعدة اسباب (3) ، لذا فالترتيب المنطقي غير ممكن ، لان البداية تقتضي اولا ايجاد أرضية ، ثم بعد ذلك توظيف المنطق في تحديد معالمها . والدراسات التي سلكت هذا المنحى لم تحدد بعد ـ بصفة قطعية ـ تلك الارضية وسعاتها ، وان كانت جادة في ذلك .

---

(3) انظر : الادب المغربي للدكتور الجراري ، ص : 13 .

4 ـ للمنهج التاريخي طريقتـــان : سكونية وتطورية ، فما هي الطريقة التي اتبعهـــا الاستـــاذ ابن تاويـــــت ؟

اننا نرى انه يتابع الادب المغربـــي من خـــلال تعاقب الدول بصفة تطورية تتم عبر محورين :

1 ـ مساوقة الاحداث التاريخيـــة في تناول الشخصيات ، وفي وقفته عنـــد الجراري ايضـــاح لذلـــك (4) .

2 ـ ملاحقة الاغراض الشعرية عند شخصيات اخرى كالامير ابي الربيع سليمان الموحدي (5) .

وتبقى الاشارة الى اثراء ذلك المنهج التاريخي من قبل الاستاذ بن تاويت عندما يتدخـــل كمحقـــق ليضيف لفظة ، او يقوم صدرا شعريا ، او يرد عجزا الى مساره الصحيح ، وفي الكتاب امثلة عن ذلـــك . ولا بأس من لفت النظر الى بيت شعري اورده المؤلف للجراوي على هذا النحو :

زاد الشقي على الخفاش شبيهـــه
ضعف البصيرة اذ ساواه في البصر (6)

وصوابه كما ورد في النبوغ عند كنـــون ج 3 ص : 193 :

زاد الشقي على الخفاش مشبهـــه
ضعف البصيرة اذ ساواه في البصر

والقصيدة من البحر البسيط ، وغير مستبعد ان يكون في الامر خطأ مطبعي ليس الا .

● لكن هناك فرقا بين خطأ مطبعي محتمـــل وبين تجاوز عملية التحقيق عند الاستعانة بالذكـــر ، لاتمام قصيدة محمد بن حسن بن عمـــر الفهـــري السبتي ، والتنصيص على ذلـــك في الهامش الاول باسفل الصفحة 350 (وما بين هلالين في هذه ، وفيما بعدها فهو منا استظهارا) ، لان ايراد بيت او ابيات، كما يبدو لنا ـ كناشئين نتعلم الضبط العلمـــي ـ يحتم ايراد المصدر ، فمهما تكن الذاكرة قوية ، ومهما تكن استرجاعاتها سليمة ، فان التوثيق يبقى المؤشر الحقيقي الدال على تناول علمي .

وما دمنا نتحدث عن الذاكرة ، فان ما يستوقف الباحث في « الوافي » هو اعتماد الذاكرة كأساس معرفي لتناول الادب المغربي من خـــلال استدعـــاء « نصوص غائبة » ، والالحاح على تشبـــع الشعـــر المغربي بها . .اذا كان النص الغائب يعرف كشبكة من التراكمات المعرفية التي رسخـــت في ذاكـــرة الاديب ، وتراءت عبر نتاجاته الابداعية ، فمن حقنا ان نتساءل عن الصفة التي تمت بها عمليـــة التراثـــي والبروز ، لا سيما انها تتخذ قنوات ثلاثا تتمثـــل في الاجترار والامتصاص والحوار (7) ، ومن حقنـــا ان نسأل المؤلف كيف تعامل شعراؤنا مـــع الموروث المعرفي الذي يحملونه ، ومن حقنا ـ اخيـــرا ـ ان نستنطق تعامل مؤلف « الوافي » مع كيفية استغلال ذلك التراث .

ويبدو انه اقتصر على الربط بين المعاني التي طرقها الشعراء المغاربة ومقارنتها بالمعاني التـــي يحيل بها ديوان الشعر العربي دونما تنصيـــص على طابع الاضافة وجودا او عدما .

اذن ، هل يحق لنا ان نقول ان ذلك يعني رجوعا الى السرقة الشعرية ؟ ، وعن طابع الاضافة اليس من واجبنا ان نشير الى الاثر الفقهي الذي يفوح من ثنايا قصائد المغاربة لا سيما في العصر المرابطي عنـــد القاضي عياض والقاضي ابن زنباع مثـــلا ؟ ونتساءل عن سبب اغفال الاشارة اليـــه رغـــم كونـــه مثبتا للخصوصية المغربيـــة ؟

---

(4) « الوافـــي » ، ص : 116 ـ 168 .
(5) « الوافـــي » ، ص : 184 ـ 252 .
(6) نفس المصـــدر ص : 138 .
(7) انظر : ظاهرة الشعـــر المعاصـــر في المغرب : لمحمد بنيس ص : 253 .

ونعود مرة اخرى الى مقارنة المعاني لنضيف اليها نثر الابيات نثرا بلاغيا ، وتقديم احكام من نفس القيمة (8) ، لنخلص الى اننا امام دراسة وصفية بلاغية تقف عند عتبة الذوق دونما اثارة للاستفهام او محاولة مقاربة تفسيرية لجوهر الادب المغربي .

اننا لن نغالي اذا وسمنا الدراسة بالوصفية المعتمدة على ثلاثة مرتكزات :

1 _ استجلاب الذاكـرة .

2 _ توظيف القيم البلاغية في فهم النص .

3 _ الاحتكام الى التراث لتحديد التعامل الادبـي .

ان الدراسة الوصفية تعرف بالادب،ونظن اننا تجاوزنا تلك المرحلة ، وبدانا نتوق الى فهم ذلك الادب ، ومحاولة تفسيره لنتوصل الى فاعليته في المجتمع ، ولنصل الى تاثيره في الذات المغربية عموما .

6 _ حول الضبط العلمي :

يرشح كتاب « الوافي » بسيولة معرفية تومىء الى ثقافة الكاتب الموسوعية ، ورصيده الغزير من المعارف ، مما جعل المؤلف يئن من افتقار الى الضبط العلمي . ونعني بذلك الاوليات المنهجية التي يصعب تجاوزها في اي عمل علمي اكاديميا كان ام غير اكاديمي ، وهاته الاوليات تتجلى عبر المنهج الذي يرسمه الكاتب لنفسه ، ويتقيد به . وكتاب «الوافي» يفتقد بعضا منها ، وسنسوق الامثلة الآتية للتدليل على ذلك :

1 _ عدم تحديد المصادر او المراجع المنتزع منها الاستشهاد :

ا_ اغفال الاشارة الى ذخيرة ابن بسام عند الحديث عن ابن دراج القسطلي ونظره في رائية المتنبي الشهيرة (الوافي ص 104 / الذخيرة ص 73 _ 75) ج 1 ق 1 .

ب _ عدم رد الحديث الشريف (ان العين لتدمع ...) الى موطنه من مدونات الحديث سواء في الكتب الستة او غيرها .

ج _ التجاوز عن الحاق الآيات القرآنية بسورها من القرءان الكريم وذكر ارقامها (ص 33 وغيرها كثير) .

د _ ذكر المؤلف دون المؤلف واهمال ذكر الصفحة (الهامش رقم 1 من الصفحة 84 من الوافي).

هـ _ عدم ارجاع الابيات الشعرية الى دواوينها وتحديد صفحاتها (مثلا ابن دراج والمتنبي في الصفحة 104 وغيرها كثير ..)

و _ عدم تقديم عناوين فرعية لاعطاء القارىء استراحة بصرية ، فالمؤلف ينتقل من شخصية لاخرى دون اى فاصل بينهما (مثلا : عند انتهائه من ابن زنباع ينقلنا مباشرة في السطر الموالي الى القاضي عياض ، ص 52) .

ز _ السقوط في المعاظلة عند ما يتداخل كلامه بكلام الادباء المتحدث عنهم (مثلا : حديثه عن القاضي عياض ص 68) .

ن _ طول الاستشهادات : كايراد القصائد الطوال (ص 160 _ 163) ، والمقتطفات النثرية بكاملها : مثلا ايراده لمقدمة كتاب « نزهة المشتاق » للادريسي برمتها (ص 272 _ 278) .

ح _ عدم ارفاق الكتاب بثبت للمصادر والمراجع المعتمدة توخيا للافادة وتجنبا ودفعا لكل حيرة والتباس يقع فيهما القارىء .

انها ملاحظات منهجية تتعلق بقدسية الضبط العلمي ، ولو روعيت لكان الكتاب اكثر افادة ، ولانتقل من كونهموجها الى نخبة من ذوي الاختصاص الى جمهور المتعلمين والمثقفين حتى يتعرف الجميع على الادب المغربي جملة وتفصيلا . وهي ليست غامطة حق المؤلف من الايجابيات ، ولا المؤلف نصيبه من

(8) الوافي ص : 34 و 258 وغيرهما .

التجلة والاحترام ، ولكنها ملاحظات فرضها رقيب يدعى : النقد العلمي .

7 ـ مصادر ومراجع « الوافي » :

سبق ان اشرنا في الملاحظة « ج » ان الاستاذ ابن تاويت لم يخصص فهرسا للمصادر والمراجع ، ولكن برجوعنا الى متن الكتاب وهوامشه حاولنا ان نستخلص اهمها . وهي مراجع ومصادر لا يقتصر فيها على المطبوع ، بل يشفع بالمخطوط على نحو ما نلاحظ في الهامش رقم 1 من صفحة 52 (.. كما في النسخة المطبوعة ، اما الخطية ففيها ابن بساع) ، وجدير بالتنبيه الى ان الكاتب لا يحيلنا على رقم المخطوط والخزانة التي يوجد بها ، وهو امر يتكرر في الصفحة 166 عند حديثه عن ابي العباس الجراوي وكتابه « صفوة الادب ونخبة ديوان العرب » . وقد ذكر عبد الله كنون ان محمد بن تاويت الطنجي اتى بالمخطوط مصورة على ميكروفيلم من اصطمبول (9).

اما المصادر والمراجع التي انتزعناها من متن « الوافي » فهي كالتالي :

1 ـ فيما قبل العصر المرابطي :

المسالك والممالك للبكري .

البيان المغرب لابن عذاري .

الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام .

2 ـ العهد المرابطي :

ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري

السعادة الابدية لابن الموقت .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان .

3 ـ العهد الموحدي :

زاد المسافر لابن التجيبي .

البيان المغرب لابن عذاري .

ديوان ابي الربيع سليمان الموحدي الذي حققه ونشره المؤلف دونما ذكر لسنة الطبع ولا للمطبعة الصادر عنها .

نزهة المشتاق للشريف الادريسي .

جذوة الاقتباس لابن القاضي .

وحري بنا ان نلفت النظر الى ان تعامل الكاتب مع المصادر في هذا الفصل كان تعاملا يخصص مصدرا لكل شخصية مدروسة : مثلا :

ــ زاد المسافر لابن حبوس .

ــ جذوة الاقتباس لميمون الخطابي .. الخ.

اما مالك بن المرحل فلم يشر الى أي مصدر او مرجع عند تناوله ..

ونشير في خاتمة هذا العرض الى المراجع الحديثة التي وردت في « الوافي » وهي لا تخرج عن كتاب (الادب الجغرافي عند العرب » لكراتشكوفسكي (ص 244) ، ولا تتجاوز اشارات الى محمد الفاسي دون ذكر المرجع (ص 117 وغيرها) ، والى عبد الله كنون دون تسميته ، والاكتفاء بـ « صاحب المشاهير» (ص 150 في الهامش وغيرها) . وعلاوة على ذلك ، فان ايرادهما لا يتم الا لتغليطهما فيما يذهبان اليه نحو قوله (وفات هذا المصدر الاستاذ الفاسي ص 156) ، وقوله (انظر مشاهير رجال المغرب حيث تجد « وله ايضا من قصيدة يظهر فيها صنيع صفوان انها غير قصيدة الصابوني»،فهذا «الاستظهار» ما كان الا لذلك الانطلاق) ص 150 .

ثم هناك اشارة الى مقالة للدكتور الجراري (هـ 1 ص 184) ، واحالات على مقالات للمؤلف (ص 17 وغيرها) .

---

(9) كان ذلك سنة 1948 . انظر : « أبو العباس الجراوي » ذكريات مشاهير المغرب ، دار الكتاب اللبناني ص : 11

8 ـ خلاصة :

هذه قراءة ، وان كانت عرضا ، لكتاب « الوافي » حاولنا فيها ان نحلل الكتاب شكلا ومحتوى ، لنقارب تفسيرا « نقديا » له ، عن طريق تعرضنا للمنهج المستقل ، ووقوفنا عند تعامل الكاتب مع « الادب المغربي » ، وهو تعامل وصفي يتوسل بالشروحات البلاغية والتعليلات المستخرجة من موروث الكاتب وذاكرته المعرفية . ورصدنا « الدقيق » لبعض الاوليات المنهجية التي اختفت من الكتاب كان بهدف تعميق القراءة وتجذيرها ؛ وليس لرمي الكتاب بالنقصان ، لانه كتاب اضيف الى الخزانة الادبية المغربية ، وقدم اضافات نحن في مسيس الحاجة اليها والى الكثير منها لاخراج تراثنا من العتمة الى نور الحقيقة والتجلي .

سلا : مصطفى الشليح



في العدد القادم :

- بيبليوغرافيا اسبانية حول شمال افريقيا.
  محمد قشتيليو
- جهود الفقهاء في تدوين الوقف وتقنينه .
  محمد بن عبد العزيز بنعبد الله
- مع طه حسين
  محمد بن تاويت
- أدب الادارسة
  عبد العزيز الساوري
- الفقيه محمد القري شاعر الالتزام
  محمد عبد العزيز الدباغ
- الحلقة المفقودة من تاريخ الحركة الوطنية المغربية
  عبد الكريم حجي

كتاب مغربي :

اللسان المعرب

عن تهافت الأجنبي حول المغرب

تأليف : العلامة المرحوم محمد بن الأعرج السليماني
عرض وتقديم : الاستاذ زين العابدين الكتاني

الكتاب المغربي له مركزه واهميته ، سواء على المستوى الوطني او على مستوى الكتاب بصفة عامة ، والاهتمام بالكتاب المغربي يعتبر من اهم الواجبات علينا لانه نافذة واسعة للتعريف بالوطن وبتاريخه المجيد ، وله مركزه في عالم خدمته تدعو الضرورة اليها ، وهذا ما التزم به وانا أحرص على تقديمه تباعا على صفحات (دعوة الحق) القراء.

والكتاب الذي نحن بصدده في هذا العرض كتب في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ، ولهذا الكتاب اهمية بالغة مما سيلاحظه القارىء من خلال هذا العرض ، ويفتح نافذة لها اهميتها ، وهو يحمل عنوان : (اللسان المعرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب) للعلامة المرحوم أبي عبد الله محمد بن محمد السليماني المعرف بابن الاعرج المطبوع باحدى المطابع المغربية (1) .

وإذا كان كتاب (اللسان المعرب ..) يشير الى ان المكتبات الخاصة بالمغرب تزخر بمذخرات كثيرة ومتنوعة ، تاريخية وعلمية مهمة ، خصوصا فيما يتعلق منها بادق المراحل التي عرفها المغرب ، وبالذات بعد ظهور لوائح جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق التي تظهر كل سنة عن وزارة الشؤون الثقافية ، فان الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه يقع في حوالي مائتي صفحة من الحجم المتوسط ، في اخراج لا باس به ، حيث يقسم المؤلف موضوعات كتابه الى اربعة اقسام ، كل قسم جزئي الى فصول ، مع حوالي عشرين صفحة تتناول موضوعات اختيرت كتمهيد للكتاب ، مع ترجمة

(1) طبع الرباط سنة : 1391 هـ – 1971 م.

للمؤلف عنى بجمعها وتنسيقها كل من الاستاذين السيد الحبيب المهاجي ، وابن المؤلف السيد عبد المالك السليماني .

(واللسان المعرب ...) كتاب له اهمية زائدة بالنسبة للبحث التاريخي لاعتبارين اثنين :

اولا : لقيمة مؤلفه وخبرته بالنسبة لجيله .

ثانيا : اعتبارا للظروف التي كتب فيها كتابه ، وهذا بالفعل ما يحاول هو نفسه ان يشير اليه في مقدمة الكتاب باسلوب الواعي المستنهض فيقول :

« غير خفي على كل ذي راي صائب ، وفكر ثاقب ما بلغته المسألة الشرقية ، وبالاخص المراكشية من الادوار ، وتبرجت فيه من الاطوار ، على انها الشغل الشاغل لسواس الدول الاوروبية ، بل بيت القصيد لدى الاندية السياسية ، واهل البلاد المراكشية في غمرة ساهون ، وعن مصالحهم العامة لاهون ، يزعمون ان فيهم بقية عزيزة الجانب ، ابية فيهم لمناكحة الحروب ، صدماتهم مفجية للكروب ، وهيهات هيهات ان ذلك من اغاليط الاعتقادات .

لقد فسد مزاج هذا المغرب وتغير ، والمعروف منه تنكر ، وكل زعيم شرخ وباض الشيطان في دماغه وفرخ ، وجمدت الافكار ، وكثرت الاشرار ، وسقطت الهمم العالية وتنوسيت العوائد السامية ، واهمل ابناء الزمان دراسة التاريخ الذي هو اساس طبيعة العمران على مر الزمان ، لا جرم ان بدراسته تتادب الاجيال وبتعاطيه تتهذب منهم الافعال ، اذ يعمد اللبيب لمحاسن من مضى فيرتكبها ، ويمج ذوقه مساويه فيرفضها ، سيما من سمت همته لفلسفة التاريخ التي تمثل الاعمال الجليلة في أوج المعالي والكمال . وتشخص المساوىء في مهاوي الانحطاط والضلال ، فانت ترى فن التاريخ اليوم نضب ماؤه ، وتكدر صفوه ، وعادت رجال المغرب تنفر من معينه وتسام ، وكسد جوهره في سوقهم فلا يسام بدينار ولا درهم ، وقد تكسد اليواقيت في بعض المواقيت .

فاستخرت الله (يقول المؤلف) في تقييد يشتمل على تلخيص تاريخ المغرب وما لرجاله من عمل مسيء او مطرب ، وابرزته في هذا الموضوع كي يروق لدى كل غيور ويضوع ، همنه تاريخ القطر المغربي ، وما وقع بين دوله والاجنبي ، وأسباب الانقلابات العمرانية .. وارشدت فيه حسب الامكان، لما يتعين تعاطيه في هذا الزمان ، رجاء ان تنهض هذه الناشئة المغربية ، وتنفض غبار الكسل عنها ، وتتحلى بما كان عليه سلفها الصالح واخذ منها ، وعل وعسى ان يرعوى منهم كل غافل لاه ، عملا بقول مولانا جل من قائل : « وذكرهم بأيام الله » ومما زادني على جمعه نشاطا ، فعكفت على كتابته اغتباطا ، ما انسته من رجال حكومتنا من التشوف لتجديد نشاطاتها سنة ستة وعشرين وثلاثمائة والف (1326 هـ الموافق : 1908) وسميت ما جمعته (باللسان المعرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب) (2) .

* * *

ومن هنا من منطلق المؤلف من هذا النقد الذاتي الجميل الذي يشير في وضوح الى هذا المنطلق الصريح الذي انطلق منه ، والتعبير عن البقية التي كانت لا زالت قائمة ، ولو ان الاغفاءة كانت تسيطر ، وهذا في الحقيقة ما جعل الكتاب يمتاز بمميزات تنعكس عليها مقومات شخصية الكتاب الذي كان من ابرز الشخصيات الواعية التي دعت الى خروج المغرب عن عزلته التي سببتها اليه انكماشه بصورة الكتاب بوضوح في مواده وهو ما اشار اليه ايضا احد التقاريظ المكتوبة سنة 1914 حيث يقول كتابه :

تعرض الى « .. بعض البعض مما طرا على المغرب المسكين من الرزايا والفتن ، ذات الداء الكمين ، واسباب انحطاطه بين الامم ، وجعله في انظار سواس العام كالعدم ، وزاد بسط الاهتمام ، وزائد الالمام ، يحض الخواص والعوام على التمسك بامور العصر الحاضر من الصنائع النافعة ، التي يغتبط بالحض عليها ولو كل مكابر ، وغير ذلك من الحكم والاثار .. » (3) .

---

(2) انظر صفحات : 2 و 3 .

(3) صفحة : 193 .

والحقيقة اننا نسجل باديء بدء ونحن نتناول هذا الكتاب الهام الذي صدر سنة 1391 هـ — 1971م بالضبط ملاحظتين هامتين ، وهي كما ارى ليست مجرد ملاحظتين ، بل هي رد عملي ، وتفنيد للذين يذهبون مذاهب غريبة وهم يتحدثون عن الفكرة التي سبقت (المسالة المغربية) وميزة ما بعد سنة (1912 م) فيتحاملون على الواقع المغربي ، ويتناسون او يتغافلون بالقصد عن (الحركة التقدمية) (4) التي عرفها المغرب يومئذ في مختلف جهات البلاد ، وفي عدة مجالات يكفيها مظهرا بروز النظرية الاعلامية للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني المعاصر لتاليف هذا الكتاب والتي أوضحت « بأن غزو وسائل الاعلام للمغرب يومئذ انما هي حرب بالاقلام ... » (5) .

اما ما يشير اليه صدور الكتاب من الملاحظتين الهامتين فهما :

أولا : يسجل الكتاب باديء ذي بدء ان المغرب عرف في ادق مرحلة في حياته « حركة تقدمية ... كانت تسعى الى تجديد ثقافي شبيه بما حدث في الشرق ... ووضع اطار كافل لسلامة البلاد وانطلاقها في طريق التمدن الذي عم اقطارا اخرى في المعمور ، وايجاد الوسائل لدرء الاخطار الاستعمارية التي كانت تهدد بشتى الوسائل استقلال المغرب وكيانه » (6) .

ثانيا : ان الكتاب الذي نحن بصدده هو نفسه مظهر من مظاهر (الحركة التقدمية) التي عرفها المغرب ، والتي اختلف مع كثير مما يؤرخون لها وهم يأخذون بأسلوب يفسحون به المجال لاشخاص ونظريات لا يتسع المجال الى تحليلها في هذا التحليل .

ثالثا : اشار الكتاب الى بعض ما جد في موضوع المغرب المجاهد الى الآن ، ضد خصومه ، وضد الذين يواصلون التلويح بنفس المظاهروراء التغيير فقط من اجل مذاهبهماو نظرياتهم التي غالبا ما تتأثر بنوع من الرواسب والمثبطات ، او الولاء وراء تطلعات غير حقانية ، كما يقول فلاسفة الصوفية بخصوص الذين لا يقدرون المسؤولية والواقع ، ويركضون وراء غايات معينة لا تخدم المجموع ، ولا تنطلق من الغايات والاهداف الحقيقية التي كانت تستهدف خلق النهضة الايمانية » (7) .

اما محتوى الكتاب بصفة عامة فينقسم الى :

1) ترجمة المؤلف وما يتصل بالكتاب وهي من اعداد المهيئين لكتاب الطبع .

2) العوامل الداعية الى وضع هذا الكتاب ، وقد زين بثلاث وثائق تتصل بالموضوع .

3) التمهيد والمقدمة وتناولت خمسة مواضع تدور حول خلافة سيدنا ابى بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما ، وصفة تخطيط الامصار على عهد السلف، وخلافة سيدنا عمر وسيدنا علي بن ابي طالب ، وسيدنا الحسن بن علي وآداب اهل البيت وآداب السلف الصالح .

4) اقسام الكتاب الاربعة ، وكل قسم جزيء الى فصول تدور كلها حول المغرب وتاريخه في عدة جوانب .

كما تناولت ما يتصل بالحدود المغربية والعلاقات الدولية ، والصراع الذي عرفه المغرب بخصوص هذا الموضوع في نطاق التنافس الدولي و « المسالة المغربية » .

في حين لا بد من الاشارة الى ان في الكتاب ما يتعين تعاطيه في المعارف العصرية وشرح الحرية والمدنية ، وترتيب المدارس والبرامج التعليمية في

---

(4) او حركة النهضة ، وقد استعمل هذا الاسم كل من المحققين في ترجمة مؤلف الكتاب .
(5) راجع مجلة (دعوة الحق) ع : 223 رمضان / شوال 1402 — يوليوز 1982 م : 274 .
(6) انظر : ترجمة المؤلف (حرف : 1) بنفس الكتاب .
(7) رسالة (المؤاخاة) للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني (رهن الطبع) .

مختلف المراحل ، والوسائل الواجب توفرها لقيام هـذا القطـاع .

وقد ركز المؤلف فصلين من الكتـاب لبيـان الحرية والمدنية وحقيقتهما المدنية عند فلاسفـة هذا الزمن ، وشبهات عن هذه الفلسفة الحديثـة ، والوفاق بينهما وبين العقيدة الصحيحة ، في حيـن ينهي الكتاب بخاتمة تدور حول « ما يجب للامير على رعيته،وما يجب لها على اميرها » (8) مما يؤكد انهذا الموضوع هو خلاصة ما يدور حوله هذا الكتاب ، كما يضم مجموعة من التقاريظ صادرة عن بعض العلماء والادباء المعاصرين للمؤلف ، وهـي صورة للفكـر المغربي ، وتقييم له لهذه المبادرة المهمة في ابانهـا وحتـى الآن .

* * *

اما مؤلف الكتاب فهو أديب كبيـر ، ومـؤرخ شهير كما عرفه صاحب كتاب : « الادب العربي في المغرب الاقصى » (9) ولد عام 1285 هـ الموافق لـ 1868 م وتوفى في 1344 هـ الموافق لـ 1927 م ، حيث نشأ في اسرة عرفت بالعلم والصلاح والفضل،

وكانت تعتمد على العمل والجد ، ومن هـذه المعطيات فقد تتلمذ مؤلفنا على كبار علماء وقتـه بجامعة القرويين ، فدرس بحـزم ونشاط ، فكـان معاصرا لزمانه ، متابعا التطور الذي كانت تعرفـه الظروف التي عاش فيها ، مطبوعا بطابع الحمـاس والغيرة والتطلع منذ نعومة اظفاره ، فشب وشاب عليها ، ويتجلى ذلك كما اشار اليه مقدما الكتاب في قصائده ومقالاته ومحاضراته ومؤلفاته .

ولقد اضطرته الظروف للعمل بالتجارة مـدة ، طبعته ايضا بعوامل جديدة وكانت عاملا للقيام بحركة فكرية واسعة النطاق ولو خارج الوطن سجلها الذين كتبوا عنه باعجاب .

وان اعظم ما يميز حياة هذا المفكر المغربـي العالـم انـه :

ا ـ فتح عينيه والمغرب يتطلع بل ويعمل الى تجديد ثقافي ، واصلاح القيم ، واقـرار التذابيـر القمينة ، بحل المشاكل ، ووضع اطار لانطلاق البلاد في طريق التمدن وايجاد الوسائل الكفيلة للوقوف فى وجه المد الاستعماري وتسربه ومواجهته بما يناسب.

ب ـ القيام بحركة فكرية تحرريـة واسعـة النطاق ، وفي هذا الاطار اسس ناديا بمحل تجارته ، ولم تكن توجيهاته وتطلعاته الوطنية قاصرة على تلك الجهة فقط ، بل كان يشارك في غيرها في اطار حركة التجديد التي كانت الشغل الشاغل للجيل .

ج ـ كذلك كان مواظبا وشغوفا بقراءة الصحف والمجلات العالمية التي لها نزعة دينية اصلاحية ، وما جد في عالم المعرفة (10) .

د ـ وساهم ايضـا في تأسيس اول مدرسة حرة (11) بفاس عام 1340 هـ ـ 1921 م .

هـ ـ اهتم عن كثب بالحرب الريفية التي كانت شغله الشاغل وله حولها جـولات ادبيـة نشرت اصداؤها بالصحف التونسية (12) .

و ـ كما نسجل بتقدير خاص انه التـزم في شعره ميوله الاصلاحية ، فبادر الى تهنئـة الاتراك بانتصارهم على اليونان شان طبقة الرواد الاوائـل للنهضة المغربية الحديثة بقصيدة بعنوان (تركيـا الجديدة) عبرت عنها الصحـف الشرقيـة اذ ذاك بقولها (صوت أتى من المغرب) (13) .

* * *

---

(8) نـفس الكتـاب : ص 177 .
(9) المرحوم الاستاذ محمد بن العباس القباج .
(10) الكتـاب : ص : 2 .
(11) نـفس المصـدر ، ص : ج .
(12) نـفس المصدر .
(13) نـفس المصـدر .

ز ـ اما انتاجه الفكري فيتمثل فى سبعة كتب:

— (اللسان المعرب ..) الذي نتحدث عنه .

— (زبدة التاريخ ..) في اربعة مجلدات .

— (ديوان شعر ..) نشر بعضه هنا وهناك .

— (تسهيل الطالب لبغية الطالب) وهو كتاب مدرسي .

— (مجموع محاضرات) فى التاريخ وعلم الاجتماع .

— (مقالات) في مواضيع مختلفة نشر بعضها .

— (دليل اساتذة المدارس الحرة) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان مؤلفنا قد انتهى من كتابه هذا عام 1330 هـ ـ 1911 م .

* * *

والحقيقة اذا ما عدنا الى موضوع الكتاب او الحقبة التي تناولها فاننا نجد ان العلامة السليماني « قد استوفى جغرافية المغرب التاريخية والسياسية، وبرهن عن معارف اهله واخلاقهم السامية ، وحماستهم في مواقف الحروب ، والسبب في تقهقرهم واوضح السبل الى معالجة عقولهم من غوائل امراضها ، واغراهم على الاقبال على تشييد ما اتلفته يد التقصير بكف النفس عن اهوائها واغراضها » (14)

وزاد المؤلف « يبسط الاهتمام ، وزائد الالمام بحض الخواص والعوام على التمسك بأمور العصر الحاضر من الصنائع النافعة التي يغتبط بالحض عليها ولد كل مكابر .. » (15) ما يلمس القارىء بالرؤيا المجردة ان الرجل كان يستهدف غاية بعينها ، ويعمل من اجل الخروج من الحصار الذي يحيط بالمغرب نتيجة عاملين اساسيين هما :

اولا : الصراع الذي احدثه خصوم المغرب واعداء وحدته يومئذ داخليا وخارجيا مما تصوره (المسالة المغربية) بدقة ، وترويه وقائع التاريخ بعد ذلك في صور متنوعة .

ثانيا : الصراع الذي عرفه المغرب في جميع الجهات نتيجة بروز حركة التجديد والنهضة مع جماعات المتخلفين والمتقوقعين الذين كانوا يحمون بقاءهم ببعث الصراع والتفرقة ، والعمل في اطار هذا الصراع الذي احدثه خصوم المغرب للوقوف في وجه (النهضة الايمانية) التي تحدو بناء المغرب الجديد بذكاء القائد الحكيم .

وهذا في الحقيقة والواقع ما يدور حوله موضوع كتاب : (اللسان المعرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب) وهو ايضا الداعي الاول لتناوله في هذا العرض .

زين العابدين الكتاني

---

(14) نفس المصدر ، صفحة : 195 .

(15) انظر : جريدة (الانباء) ع : 614 ـ ص : 4 ـ تاريخ : 4 / 12 / 1972 .

في ركاب ابن الخطيب

النابغة الشهيد

-2-

للأستاذ محمد محيي الدين المشرفي

واذا كان قانون الحياة يقضي بذهاب الاجساد واضمحلالها مع الرضى بقضاء الله – سبحانه وتعالى – فانه مما يسلي النفس، ويطمئن الخاطر ان يستطيع الانسان الاستفادة من الآثار التي تركها لنا من ورائهم كبار المفكرين .. ومن ثم وجب ان نشير – قبل الاستمرار في التعريف بالذين يتحملون امام التاريخ عبء الجريمة التي ذهب ضحيتها ابن الخطيب منذ ما يزيد على ستة قرون – الى نماذج من آثاره الخالدة، وفي مقدمتها تلك الرسائل السياسية التي كان يكتبها باسم سلطانه الى مختلف الملوك والرؤساء؛ وكلها رسائل قيمة ممتازة بأسلوبها المشرق، وذلك لا للدلالة فقط على ما كان يتمتع به صاحبنا من عمق في التفكير، وادراك عميق لاسرار اللغة مع اطلاع واسع ايضا على ما كان يحرك النفوس البشرية احيانا من حقد دفين، وبغض قوي متين، ولكن لنقدم البرهان كذلك على ان ايمان ابن الخطيب الراسخ القوي يتجلى بأوضح صورة في كل ما كتبت يداه؛ وفي ذلك كله ما سوف يساعدنا، ان شاء الله، على تحليل التهمة الخطيرة التي الصقها به ابو الحسن النباهي، وهي تهمة تثير عدة تساؤلات لا نعتقد انه باستطاعة قاضي القضاة ان يجيب عنها لو كان حيا يرزق.

واذا كانت رسائل ابن الخطيب قد اكسبته حقا سمعة واسعة في المشرق والمغرب، فانه نال شهرة مماثلة بسبب ما تركه لنا من شعر رقيق رصين يؤثر في النفس الى ابعد حد. وأما وصيته لاولاده فهي قطعة ادبية رائعة ان دلت على شيء فانها تدل على ما كان عليه صاحبها من ايمان ثابت، وعقيدة راسخة، واتكال على الله وحده، سبحانه وتعالى، في أموره كلها. وباعتبار ان ابن الخطيب كان يعيش وسط خضم من الازمات السياسية والتحركات العسكرية التي اضطلعت بها بلاد الاندلس المجاهدة باستمرار، فان كتاباته الى الملوك، وملوك بني مرين على الخصوص، كانت تفيض بما كان يملأ قلبه من غيرة اسلامية وثابة، وروح وطنية متقدة متأججة، من ذلك ما جاء في خطاب له باسم سلطان الاندلس الى ملك بني مرين، مستنهضا عزيمته لنصرة الاندلس، فيقول:

« المقام الذي يؤثر حظ الله اذا اختلفت الحظوظ، وتعددت المقاصد... وتشمل عادة حلمه وفضله الشارد، ويسع وافر ظله الصادر والوارد؛ مقام محل اخينا الذي حسنت في الملك سيره، وتعاضد في الفضل خبره وخبره... السلطان كذا... ابن السلطان كذا... ابن السلطان كذا... ابقاه الله رفيعا علاؤه، مزدانة بكواكب السعد سماؤه، محروسة بعز النصر ارجاؤه، مكملا من فضل الله تعالى في نصر الاسلام وكبت عبدة الاصنام امله ورجاؤه، معظم قدره الذي يحق له التعظيم، وموقر سلطانه الذي له الحسب الاصيل

والمجد الصميم ، الداعي الى الله باتصال سعادته حتى ينتصف من عدو الاسلام الغريم ، ويتاح على يد سلطانه الفتح الجسيم . سلام كريم طيب عميم ، ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمدا لله الذي لا يضيع أجر من احسن عملا ، ولا يخيب لمن اخلص الرعية اليه املا .. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي انزل عليه الكتاب مفصلا ، واوضح طريق الرشد وكان مقفلا ، وفتح باب السماء ولولاه كان مقفلا ... والرضى على آله وأصحابه وعترته واحزابه الذين ساهموه فيما مر وما حلا ... ورفعوا عماد دينه، فاستقام ، لا يعرف ميلا ، وكانوا في الحلم والعفو مثلا ، والدعاء لمقامكم الاسمى بالنصر والعز والسعد .

فانا كتبنا اليكم اصحب الله تعالى ركابكم حلف التوفيق حلا ومرتحلا ، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله تعالى ، ثم بما عندنا من التشيع لمقامكم حرس الله تعالى سلطانه ... ومقامكم عندنا العدة التي بها نصول ونرهب ، والعمدة التي نطيل في ذكرها ونسهب [وقد أوفدنا عليكم كل ما زاد علينا ، او فتح الله به علينا ، ونحن مهما شد المخنق بكم نستنصر ، او تراخى ففي ودكم نستبصر ، او فتح الله تعالى فبابوابكم نهنىء ونبشر؛ وقررنا عندكم ان العدو في هذه الايام توقف عن بلاد المسلمين ، فلم تصل منه اليها سرية ، ولا بطشت له يد جدية ، ولا افترعت من تلقائه ثنية ؛ ولا ندري المكيدة تدبر ، أم آراء تنقض بحول الله وتتبر ، او لشاغل في الباطن لا يظهر ... » .

ثم انه يشير في هذه الرسالة البليغة الى ما ينتظره اهل الاندلس من مساعدة اكيدة ، لا سبيل للاستغناء عنها ، ملحا على ضرورة تنفيذ الاسعاف المرتقب من المغرب ، بعد الصلح الذي سبق لسلطان غرناطة ان ابرمه مع النصارى الآثمين ؛ « ان المجرمين في عذاب جهنم خالدين » ، وأنت ترى ان الرسالة كلها تفيض ايمانا بالله وثقة بعظمة ملكه وتأدبا كذلك مع ملك المغرب الذي يعتقد فيه كل خير وينتظر منه المساعدة بالمال والعتاد . فكلما ذكر اسم الله جلت قدرته ، او جرى على لسانه اسم نبينا الكريم عليه افضل الصلاة وازكى التسليم الا وغمرك الاحساس بما يفيض به قلبه من خشوع تعظيما لخالقه وتكريما لانبيائه واصفيائه المرسلين ، معربا عن استعداده في كل حين للتضحية والاستماتة في سبيل رب العالمين . افيسمح المرء لنفسه بعد هذا كله ان يتوجه بالطعن في ايمان ابن الخطيب ، ويرميه بالابتعاد عن قوانين الدولة واحكام الشرع ، تلك الاحكام التي تربى في احضانها ، وعاش في كنفها ، ومات ، اللهم اشهد ، مستمسكا باذيالها ! ولم هذا الحرص من اعدائه على تلويث سمعته ظلما ؟ لكن « زين لهم سوء عملهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين »! واليك رسالة ثانية نستدل بها على براعة ابن الخطيب في سبك الرسائل السلطانية واعطائها رونقا يجعلها نماذج حقا يقف عندها كبار الكتاب والمترسلين .

كتب الى سلطان بني مرين على لسان امير المسلمين يوسف بن اسماعيل بن فرج ، فقال :

« من امير المسلمين عبد الله يوسف ابن امير المسلمين ابن الوليد اسماعيل بن فرج ابن نصر الى محل اخينا الذي نثني على مجادته اكرم الثناء ، ونجدد له ما سلف بين الاسلاف الكرام من الولاء ، ونتحفه من سعادة الاسلام واهله بالاخبار السارة والانباء ، السلطان فلان ... بن فلان ... بن فلان ، ابقاه الله تعالى رفيع المقدار ، كريم المآثر والآثار .. سلام كريم ، بر عميم يخص جلالكم الارفع ورحمة الله وبركاته . اما بعد حمدا لله على آلائه ، وجزيل نعمائه ، ميسر الصعب بعد ابائه ، والكفيل بتقريب الفرج وادنائه ؛ له الحمد والشكر ملؤ أرضه وسمائه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، خاتم رسله الكرام وانبيائه ، الهادي الى سبيل الرشد وسوائه ... والدعاء لمقامكم بتيسير امله من فضل الله سبحانه ورجائه ؛ فانا كتبنا لكم كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قوله وعمله من أوليائه ، وعرفكم عوارف السعادة المعادة في نهاية كل امر وابتدائه ؛ من حمراء غرناطة ــ حرسها الله تعالى ــ ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا رسوله الكريم الذي اوضح برهانه ، ثم بما عندنا من الود الكريم ، وتجديد العهد القديم لمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ... فانه قد كان بلغكم ما آلت الحال اليه بطاغية قشتالة الذي كلف على هذه الاقطار القريبة من وراء البحار وما سامها من الاوصاب والاضرار ... نكث العهد الذي عقده ، وحل الميثاق الذي اكده ،

وحمله الطمع الفاضح على ان اجلب على بلاد المسلمين بخيله ورجله ... وامل ان يستولي على جبل الفتح ... فضيقه حصارا واتخذه دارا ... وعندما عظم الاشفاق ، واظلمت الآفاق ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصنيع العجيب ، وطرق الطاغية جند من جنود الله تعالى اخذه اخذة رابية ، ولم يبق له من باقية ، فهلك على الجبل حتف انفه ... واصبحت البلاد مستبشرة ورحمة الله منتشرة » .

ولما كان موضوع الرسالة هو اطلاع سلطان المغرب على اندحار جيش النصارى المعتدين بعد انفضاض الحصار عن الجبل عقب هلاك ملك القشتاليين ، فقد ختم ابن الخطيب رسالته بقوله : « ورأينا ان هذه الرسالة التي يأخذ منها كل مسلم بالنصيب الموفور ، ويشارك فيما جلبته من السرور ، انتم اولى من نتحفه بطيب رياها ، ونطلع عليه جميل محياها ، لما تقرر عندنا من دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ولما تقلص ظل الاسلام بالجزيرة — وهو ما كان يراه قريبا — واسترد الكفار — دمرهم الله ! — اكثر امصارها وقراها على وجه العنوة والصلح او الاستسلام ، كتب لسان الدين ابن الخطيب من جملة ما كتب العلماء والوعاظ والوزراء الى الامصار يحث الناس فيها على الجهاد فيقول :

« ايها الناس ، رحمكم الله ، اخوانكم المسلمون دهم العدو — قصمه الله — ساحتهم ، ورام الكفر — قبحه الله — استباحتهم ؛ وزحفت احزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعيه اليهم ؛ هو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد ، الجهاد ، فقد تعين ، الجار ، الجار ، فقد قرر الشرع حقه وبين ؛ الله الله في الاسلام ، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ؛ الله في وطن الجهاد في سبيل الله ؛ فقد استغاث بكم الدين فاغيثوه ؛ قد تأكد عهد الله حاشاكم ان تنكثوه ! اعينوا اخوانكم بما أمكن من الاعانة ، أعانكم الله عند الشدائد ؛ جددوا عوائد الخير ، يصل الله لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، وآسوا بانفسكم واموالكم تلك الطوائف المسلمة . كتاب الله بين أيديكم ، والسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله يقول فيه : « يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم » ؛ ومما صح عنه قوله: « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار ؛ لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » ؛ « ومن جهز في سبيل الله فقد غزا » ؛ ادركوا رمق الدين قبل ان يفوت ، بادروا عليل الاسلام قبل ان يموت ؛ احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا في الانفس والاموال حق جهاده :

ما ذا يكون جوابكم لنبيكم
وطريق هذا العذر غير ممهد

ان قال لم فرطتم في امتي
وتركتموهم للعدو المعتدي ؟

تالله لو ان العقوبة لم تخف
لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحمية في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم الضعيف ، والاولاد ، اللهم انصرنا على اعدائك باحبابك واوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ! » .

وهذه البراعة في التحرير التي راحت صفة مميزة لابن الخطيب لم تظهر في رسائله فحسب ، بل ظهرت قدرته البيانية ايضا في القصائد التي ضمنها ما كان يجيش به صدره من عواطف رقيقة واحساسات نبيلة في مدح الملوك الذين سخر مواهبه لخدمتهم او الذين رمت به الاقدار الى الاحتماء بجوارهم . وفعلا ، في خضم احدى الازمات التي حلت به نتيجة تكالب الاعداء عليه ، كان ابن الخطيب قد فكر في القيام بفريضة الحج فرارا من الجو الخانق الذي كان يعيشه وتقربا من الله عز وجل الذي لا يخذل ابدا عباده المتقين ، فكتب في ذلك يقول :

الاهي بالبيت المقدس والمسعى
وجمع اذا ما الخلق نزاوا جمعا

وبالموقف المشهود ، يا رب في منى
اذا ما أسال الناس من خوفك الدمعا

وبالمصطفى والصحب عجل اقالتي
وانجح دعائي فيك يا خير من يدعى

صدعت وانت المستغاث جنابه
اقل عثرتي يا مأملي ومجبر الصدعا

ولما تمكن السلطان المخلوع محمد الغني بالله من استرداد عرشه، على نحو ما تقدم، نظم ابن الخطيب، وهو اذ ذاك بمدينة سلا، قصيدة عصماء ضمنها عواطفه وولاءه املكه يقول فيها :

واذا استحالت حالة وتبدلت
فالله عز وجل لا يتبدل

واليسر بعد العسر موعود به
والصبر بالفرج القريب موكل

ثم نراه متوسلا الى النبي المصطفى الكريم عليه افضل الصلوات وازكى التسليم، فيقول مناديا :

امحمد والحمد منك سجية
بحليها دون الورى تتجمل

ولك السجايا الغر والشيم التي
بغريبها يتمثل المتمثل

ثم يقول :

تاب الزمان اليك مما قد جنى
والله يأمر بالمتاب ويقبل

ان كان ماض من زمانك قد مضى
باساءة قد سرك المستقبل

والله قد ولاك أمر عباده
لما ارتضاك ولاية لا تعزل

واذا تغمدك الاله بنصره
وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل ؟

لله موقفك الذي وثباته
وثباته مثل به يتمثل !

وهي قصيدة طويلة رائعة، كما يقول المقري، كلها درر وفوائد.

هذا ولما اضطر ابن الخطيب الى مغادرة بلاد الاندلس من النكبة الاولى التي اطاحت بالسلطان ابي محمد عبد الله الغني بالله كان قد قرر الاستقرار بمدينة سلا، كما ألمحنا الى ذلك آنفا، انقطع لخدمة ضريح ابي الحسن المريني ملتمسا شفاعته لدى ولده ابي سالم كيما يواصل النعمة التي كان ينعم بها عليه، ويسترسل في تقديم الجرايات التي كان قد امر بها اليه وذلك عن رسائل كان يوجهها باسم الوالد الى ولده ولا ينفك يختتمها بقصائد نقتطف من احداها هذه الابيات :

عن باب والدك الرضا لا ابرح
باسو الزمان لاجل ذلك ويجرح

ايسوغ عن مثواه سيري خائبا
ومنابر الدنيا بذكرك تصدح ؟

انا في حماه وانت ابصر بالذي
يرضيه منك، فوزن عقلك ارجح

وعسى الذي بدا الجميل يعيده
وعسى الذي سد المذاهب يفتح !

وابن الخطيب الذي عرف بتهافته على حب الدنيا نراه لا يتدرع بالصبر في انتظار الجواب عن رسالته الاولى، لكنه يزداد الحاحا في الطلب باضافة قصيدة للكتاب الاول كانه يستعجل الجواب، فيقول:

مولاي ها انا في جوار ابيك
فابذل من البر المقدر فيك

اسمعه ما يرضيه من تحت الثرى
والله يسمعك الذي يرضيك

* * *

واذا قضيت حوائجي واريتني
أملي فربك ما اردت يريكا

اضفى عليك الله ستر عناية
من كل محذور الطرق يقيك

ببقائك الدنيا تحاط واهلها
فالله جل جلاله يبقيكا

وسبق لابن الخطيب ان مدح الشيخ ابن البطان الصنهاجي ، فقال فيه هذا البيت الرائع :

ان كان في الدنيا كريم واحد
يزن الجميع فانت ذاك الواحد

ولعل ان ابلغ ما ترك لنا لسان الدين بن الخطيب في باب الانشاء والكتابة ، تلك الوصية الخالدة التي وجهها لابنائه الثلاثة،علي وعبد الله ومحمد لما احس بدنو اجله ، وقد علم — كما قال — بأن ادوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع ، والوصية عبارة عن قطعة ادبية قليلة المثال بما حملته في طيها من شعور ديني فياض يعطيك الدليل على ما كان يتمتع به صاحبها من ايمان قوي ، راضيا بكل ما كتب الله له ، وهو الذي يعلم اكثر من غيره ان الدنيا دار ممر وان الآخرة ، دار المقر ، هي خير وابقى لمن اتقى .

فهذا ابن الخطيب يوصي اولاده العزيزين بما اوصى به لقمان ولده ، اذ قال له وهو يعظه :

« يا بني ، لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم، يا بني ، اقم الصلاة وامر بالمعروف ، وانه عن المنكر، واصبر على ما اصابك ، ان ذلك من عزم الامور ؛ ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الارض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور ... يا بني ، ان الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن الا وانتم مسلمون ...». جاءت وصية ابن الخطيب هذه وصية مبوبة احسن تبويب ، مرتبة احسن ترتيب بحيث ما غفلت عن ذكر باب من الابواب او موضوع من المواضيع التي تتوقف عليه حياة الانسان حتى يضمن لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة ، والذي يعود الى مراجعة هذه القطعة الادبية يرى انها آية الفصاحة والوضوح ، طافحة بايمان قوي عريض من رجل ملأ الدنيا بالاعمال الصالحات . وها هو الآن آيب الى ربه الكريم ، مفتقر الى عفوه ورضاه ! يقدم لفلذات كبده صادق النصح وخالص الارشاد ، داعيا لهم بالتوفيق وراجيا من الله عز وجل ان يهديهم سواء السبيل ! ونراه يحثهم بادىء ذي بدء على التمسك باهداب الدين الحنيف، والشريعة الاسلامية السمحة ، فلا تستميلنهم الدنيا وبريقها عن العمل باوامر الدين القويم ؛ فيقول لهم باسلوبه الفخم القوي الفصيح : « بل دونكم عقيدة الايمان حتى تعضوا عليها بالنواجذ والتمسك بكتاب الله وتلاوته ؛ وتفكروا في آياته وامتثلوا اوامره ؛ ثم الصلاة والطهارة والزكاة — حق الله في مال من اغناه، وصيام رمضان ، عبادة السر المقربة الى الله زلفى ، والجهاد وهي اعمدة الاسلام » . ثم انه يحض ابناءه على طلب العلم والتمسك بالصدق ، والحرص على التحلي بالامانة في كل شيء مع اجتناب الزنا والخمر؛ وبعد ذلك يقول : ولا تقربوا الربا واياكم والظلم فهو ممقوت بكل لسان ، واطرحوا الحسد ، واجنحوا الى الخوف من الله عز وجل . هذه اسعدكم الله وصيتي التي اصدرتها وتجارتي التي لربحكم ادرتها ؛ فتلقوها بالقبول لنصحها والاهتداء بضوء صبحها ؛ وبقدر ما امضيتم من فروعها ، واستفشيتم من دروعها ، اقتنيتم من المناقب الفاخرة ، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة ؛ فاعلموا ان تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب ؛ فالدنيا مناخ ارتحال ، وتأميل الاقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ؛ والسلام عليكم من حبيبكم المودع ورحمته تعالى وبركاته » .

وغني ، عن البيان ان الوصية ، كما ترى ، مليئة بالحكم ، طافحة بالوصايا الثمينة لمن شاء ان يعمل بها ليسلك بنفسه الى بر السلامة والنجاة .

يؤخذ اذن من كل ما سبق ان الاثار التي ترك لنا ابن الخطيب تؤكد بوضوح ما كان يتصف به هذا العالم الجليل من قوة ايمان ، وصلابة عقيدة ؛ وعلم واسع غزير ؛ فقد كان قدوة للغير في كل شيء ، ولم يكن لاحد ، مهما علا شأنه او نمت معارفه وانتشر صيته في المجتمع الاسلامي بالاندلس او المغرب ان يلقنه درسا في موضوع الحمية الوطنية او الغيرة الدينية . ومع ذلك فقد تعرض ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، لمقاومة عنيفة — سنحاول الاطلاع على بواعثها في طي هذا الحديث — من طرف خصمين لدودين هما القاضي ابو الحسن النباهي والرئيس ابو عبد الله ابن زمرك ؛ ومن المعقول ان نتوقف ولو قليلا عند هاتين الشخصيتين المرموقتين للتعرف على الاسباب التي دفعتهما الى مقاومة ابن الخطيب مقاومة عنيفة شديدة ادت الى مقتل هذا العالم الجليل ؛ مع ان القاضي النباهي كان يعد من ذوي المروءة والاحسان ؛ قال فيه القاضي المؤرخ ابو عبد الله بن ابي عسكر : « هو من حسباء مالقة واعيانها وقضاتها ؛ بيته بيت علم وقضاء وجلالة ، لم يزالوا يرثون ذلك كابرا عن كابر » . وقال فيه ابن الزبير :

« كان طالبا نبيلا من اهل الدين والفضل والنهى والنباهة » . واذا كانت هذه حال هذا القاضي الورع فالسؤال المطروح هو لماذا حشر انفه بمساعدة ابن زمرك في خصومة ذهبت به الى المشاركة في قتل عالم من علماء الاندلس الاجلاء ، لا لعلة واضحة او لسبب معقول ؟ الم يعلم فقيهنا النبيه ان مشاركته في قتل ابن الخطيب تورثه لا محالة ، وهو المطلع على احكام الدين ، عقابا لا مثيل له من الله عز وجل الذين قال في محكم كتابه : « ان من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ؟ » ثم ان النباهي لا يقتصر على اتهام موكلنا بالزندقة ، بل يواخذ عليه فراره من الجزيرة كانه يخاف ان يلاحقه عار تلك الجرائم التي يكون ابن الخطيب قد ارتكبها من قبل ؛ على ان الهجرة لا تكون ـ بحسب قول ابي الحسن النباهي ـ الا لمكة وطيبة والقدس ، اعاد الله لها سالف عزها ! وها هو يعيب عليه تدخله السافر في شؤون قضائية لا تعنيه من قريب او بعيد ، متخذا فيها مواقف ، والعهدة في هذا كله على النباهي ، منافية للشريعة الاسلامية .

وهنا يحق لنا ان نسال حضرة القاضي المحترم عن الاسباب التي منعته من التعرض لابن الخطيب عن ان يحشر انفه في امور كانت فعلا من اختصاص السيد القاضي وحده ؟ فاذا كان ابن الخطيب اذ ذاك من الحظوة والجاه بحيث لم يكن في استطاعة حضرة القاضي ان يقوم في وجه ابن الخطيب متعرضا لتدخلاته ، فلم لم يتقدم للسلطان بملتمس يرجو به اعفاءه من منصب لم يعد بامكانه القيام به على الوجه المطلوب ؟ ثم ان القاضي ابا الحسن النباهي يستمر في تعداد مثالب ابن الخطيب ويقول :

« وكلامكم في الهجو والمدح هو عندي من قبل اللغو الذي نمر به كراما ... ! » . يا سبحان الله ! وهل كان باستطاعة حضرة القاضي ان يمر بذي الوزارتين مر الكرام ، كما يقول ، يوم ان كان موظفا متواضعا يكد ويبذل ما في طاقته ليرضى عنه ابن الخطيب ، حتى اذا نكبه الدهر راح ينعته بالعبث والابشار ، وهتك الاعراض ، وافشاء الاسرار ، واستعمال المكر والغدر الى غير ذلك من التهم الخطيرة ... ؟ ويمكن القول بان هذه التهم الثقيلة التي الصقها القاضي ابن الحسن النباهي برئيسه سابقا هي التي حملت ابن الخطيب ردا على ما جاء فيها من تحامل سافر على ان يفرد تاليفا مستقلا بالقاضي ، كله ذم وتشنيع به سماه : « خلع الرسن في وصف القاضي ابي الحسن » ، فيه كلام لاذع علم القاضي قدرة ابن الخطيب على الانتقام ، انتقاما مرا من عدوه ، ملقبا اياه بافحش الالقاب ، وابشع النعوت ؛ فاذا لم يستطع صبرا على ما نعته به ابن الخطيب فاللوم يقع عليه اولا وبالذات لانه هو المعتدي، وفي هذا الموضوع تقول العرب : « الخير بالخير والبادي أكرم ، والشر بالشر والبادي اظلم » .

اما ابن زمرك الاديب النبيه ، فلم يكن دون ابي الحسن تعلقا بابن الخطيب ، في اول الامر ، ولا اقل منه تقربا واعترافا بفضله عليه ؛ ولذلك كان يقول ـ قبل ان تحل النكبة باستاذه طبعا ـ : « أنت ولي نعمتي ، ومقوم كمالي » ؛ ثم انه ينعته بانبل الصفات، ويضيف له احسن الاخلاق والعلامات ، بل يزيد مبالغا في المدح ، فيقول :

خليلي هل أبصرتما او رايتما
بأكرم من يمشي اليه عبيد ؟

ومما لا شك فيه ان ابن الخطيب كان محسودا على ما كان يتمتع به من نعمة ، وما كان ينعم به من جاه خاصة من اولئك المقربين من البلاط الملكي امثال ابي الحسن النباهي والرئيس ابن زمرك واضرابهما الذين ما ان تغيرت الاحوال السياسية بالنسبة اليه حتى بادروا الى طرح طاعته ومواجهته ـ يا للعار ! ـ بالعداوة السافرة ... وقل لي بربك ، هل يخلو زمن من حساد ومتنكرين للمعروف ؟ كذلك الصديق الصدوق في زمن ابن الخطيب كان قليلا ؛ قال صاحب « نفح الطيب » مؤكدا على هذا المعنى لما سبق :

ابناء دهرك فالقهم
مثل العدا بسلاحكا

لا تغتر بتبسم
فالسيف يقتل ضاحكا

وصحيح ان داء الحسد والتنكر أعيى الاول والآخر ، الا ان امره عظم في الزمان الذي كان يعيش فيه لسان الدين ابن الخطيب حيث كثر فيه المزدري والساخر نتيجة فساد المجتمع ، وتعفن النفوس الحقيرة والضمائر الصغيرة . وغني عن التوضيح ان

عاطفة الحسد جارية متواترة بين الناس وخاصة منهم ذوي المناصب والرتب العالية . قال مسهب الحجاري في هذا المعنى ، وهو يتحدث عن خصال موسى بن نصير : « كان قد جمع — رحمه الله — من خلال الخير ما أعانه الله به على ما بنى له من المجد المشيد ، والذكر الشهير المخلد الذي لا يبليه الليل والنهار ، ولا يعفن جديده بلى الاعصار الا انه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيس يسلم منه ، وهو الحقد والحسد ، ذلك ان السيد اذا ترك اضمار الخير والشر والمجازاة عليهما اجترىء عليه ، ونسب للضعف والغفلة ، وذلك ما يرويه لنا التاريخ فيما صدر من غل وحسد وانتقام من موسى بن نصير تجاه رفيقه طارق بن زياد بعدما تحقق لديه فتحه لعدد كبير من المدن الاندلسية ، واستئثاره بالغزو دونه ».

والواقع ان النفوس بقيت عرضة للحسد والانتقام طيلة حكم المسلمين للاندلس ، سواء كان ذلك في ايام الولاة ، او في خلافة بني أمية ، او انتقلت الامور الى ملوك الطوائف حيث تسرب اليها الضعف والانحلال نتيجة تخاذل ملوك المسلمين في ارض الجزيرة ... ويعلمنا التاريخ — للاسف الشديد — ان تلك الحالة ستبقى على ما كانت عليه الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

ومع ذلك فان احسان ابن الخطيب لمن كان يعيش في كنفه كان معروفا شائعا ، بل كان يعطي الى حد انه كثيرا ما كان يمن عطاءه على الناس ، وكان يؤمن — رحمه الله — بأن الاحسان يجر على صاحبه الثناء الجميل ، تحقيقا لقول الشاعر الذي يقول :

احسن الى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الانسان احسان

لكن ذلك لا يكون عادة الا اذا كانت النفس التي وقع عليها ذلك الاحسان نفسا طيبة خليقة بذلك الاكرام ، اما اذا كانت تنتسب لوسط فاسد متعفن فانها لا تلبث ان ترد السيئة مكان الحسنة .

وهكذا حاول اعداء ابن الخطيب تلويث سمعته ، فنسبوا لشيخ وقور مفتريات من الاقوال والافعال ما لهم بها من سلطان ، على انهم لم يقفوا كما لم يقف احد من الكتاب والناقدين في كل ما كتبه هذا العالم الجليل ، وحتى في « روضة التعريف بالحب الشريف » على ما ينبىء بضعف عقيدته ، او ما يبرر الطعن في ايمانه ، على ان « روضة التعريف » التي يقال عنها انها كانت مثار هذه الضجة المفتعلة كان ابن الخطيب قد فرغ من وصفها قبل انتقاله الى المغرب بصفة نهائية ، وتقديم هذا الكتاب الى السلطان محمد الغني بالله ابن الاحمر ، فلو كان الكتاب يحتوي حقا على ما من شأنه ان يقدح في سمعة مؤلفه ، او ما كان فيه يسيء الى احكام الشريعة الاسلامية ، ما كان للسلطان ان يتقبله بسرور وترحاب ، ثم لو كان فيه ما يثير الشبهات حول اخلاق ابن الخطيب وعقيدته اكان باستطاعة خصومه — قاتلهم الله ! — ان يكتموا عنه ذلك ؟

وبالرغم مما قيل وكتب في حق ابن الخطيب فهل ان الضجة الكبرى التي اقامها اعداؤه عليه تفيد انه كان منزها عن كل عيب ، بعيدا عن كل نقيصة نسبت اليه ؟ او انه مات — رحمه الله — بريئا من كل سوء ، ليس عليه عتب ولا ملام ؟ واذا كان القوم بما فيهم الاصفياء والخصوم يعترفون له بلا جدال بما ابداه دائما من تحمس في الدفاع عن ارض الوطن وحرص على التمسك بالقوانين التي تحفظ كيان الدولة ، فانهم يعيبون عليه مع ذلك تهافته على متاع الدنيا ، وحرصه الشديد ايضا على جمع المال باي وسيلة كانت ، من ذلك انهم كانوا ينشرون عنه انه ما وطئت قدماه بلاد المغرب — بعد النكبة التي أطاحت بالغني بالله — حتى جعل يكاتب ابا سالم المريني ليتفضل عليه ببعض الاقطاع ، مع الاشارة عليه بالحاح الى رغبته في توظيف اولاده بالبلاط المريني ... هذا وان حب ابن الخطيب للمال والعقار شيء معروف وطبيعي ، ذلك ان النفوس البشرية تعتقد — الا من شذ ، والشاذ لا حكم له ، كما يقول الفقهاء — ان الاستقلال الحقيقي بالنسبة للناس في كل زمان ومكان ، لا يقاس ، ويا للاسف ! ، بما يحملونه من علم ومعرفة او ما يتمتعون به من حنكة سياسية او سمعة طيبة حميدة ، بل بما يقع تحت ايديهم من مال واسع عريض يجعلهم في غنى عن الناس ومأمن من تقلبات الزمان . وهناك شيء آخر كان يعاب على ابن الخطيب هو اعتداده بنفسه ، وترفعه عن الناس شعورا بعلو المكانة التي ادركها ، والمرتبة التي بلغها ، والحظوة التي راح يتمتع بها لدى كافة الملوك والرؤساء بفضل مواهبه الفكرية وجرأته السياسية ،

وحاشاه ان يكون اقل اخلاصا من غيره لوطنه ولا اقل اهتماما بشؤون دينه ، كما يزعم اعداؤه ، لا لشيء الا لانه كان يرى — وهو صاحب العقل الواسع والعلم الغزير ان يحكم في هذه القضيـــة او تلك تجربتـــه العلمية الفائقة واحساسه السياسي المرهف عوضا عن ان يميل فيهما الى تطبيق النص الشرعي بصورة عشوائيـــــــة .

وصحيح ان ابن الخطيب كان سليـــط اللسان ككل معتز بنفسه الامارة بالسوء ، حــاد الانتقـــاد ، فويل لمن تعرض له ظلما في الطريق ، فانـــه لا يبرح ان ينال منه فوق ما يريد طعنا وتعييرا وتحقيرا .

وغريب امر هذا الكاتب البارع كيف كان يتنكر للمحسنين اليه ، وكيف انه كان يتقلب مع الزمـــان ويدور مع الاحوال ، بحيث ما يتغيب وجه احد الكبار الذين كان يتعلق بهم انطلاقا مـــن مسرح السياسة حتى يلتفت الى غيره وان كان عدوا للاول ، كذلك ما كان يموت السلطان عبد العزيز المريني الذي كان قد التجأ اليه فرارا من الاعداء ، ويثوى في التراب حتى بعث رسالة تهنئة الى ابي حمـــو موسى صاحـــب تلمسان وخصم بني مرين الالد يحمد الله فيها على ان استرد ملكه من عبد العزيز !

* * *

ومع ذلك كله فلا بد من الاعتراف ، في الختام، ان هذا العلم الغزير ، وهذه البلاغة الساحرة التـــي نلمسها في كل ما كتب ابن الخطيب ، وكذلك هـــذه الحظوة السياسية المطلقة التي بـــز بها اقرانـــه ومعاصريه هي التي حركت طبعـــا السنـــة الحساد والحاقدين بنشر ما لا يليق بكرامة شيخ وقـــور ، وعالم جليل ، وهي هي التي دفعت بعـــض ادبائنـــا النابهين كالشيخ احمد بن محمد المقري للعمل على انصاف ابن الخطيب من جور الزمان وظلم الظالمين المعتدين ، فاستطاع بفضل ما جمعـــه في كتـــاب « النفح » و « ازهار الرياض » من ان يـــرد كامـــل الاعتبار — ان صح القول — الى رجل لم يكن فيه من عيب سوى انه حبته الطبيعة بفكر واسع ، وعقـــل ثاقب ، ونفس كريمة ، وروح جياشة بالخير ، فياضة بالغيرة الوطنية والحمية الاسلامية . وهذا ما حمل بالذات الشيخ احمد المقري على القول ابرازا لهذه المزايا العلمية الخارقة :

بهر الانام رياسة وسيـــــاسة
وجلالة في المنتمى والمحتـــد
ما شئت من شعر ارق من الصبا
وكتابة ازهى من الزهر النـــدي

ثـــم يقـــول :

ليت شعري اي العبارات توفي
واجب ابن الخطيب مما اروم ؟

ويتساءل المقري عن الاسباب التي حملته على الاشادة بذكر هذا العالم الجليل ، فيقول :

الحفظ قد ازوى مـــن معيـــن
لصواب عليه كـــل يحـــوم ؟
ام لفهم يستخرج الدر غوصـــا
من بحار يخشى بها من يعوم ؟
ام لفكر مؤلـــف في فنـــون
عن دهاء به تـــداوى الكلـــوم ؟
ام لنظم كانه جوهر السلـــ..
ـــك غلا قدره على من يسوم ؟
ام لنثر وافى بسحر بيـــــان
فهو كالروح والمعاني جسوم ؟ !

ثم يختتم هذه الشهادة الصادرة عـــن اديـــب معروف بنزاهته العلمية ، فيقول :

« لم يكن جمعي ، علم الله ، هذا التاليف لرفد استهديه ، او غرض نائل استجديه ، بل لحـــق ود اؤديه ، ودين وعد اقدمه وابديه ، وتلبية داع احييه وافديه » ، حتى قال :

ان من يرجو نـــوالا ونـــــدى
من بني الدنيا لذو حظ غبيـــن
ما لنا من مخلـــص ناتـــي بـــه
غير جاه المصطفى الهادي الامين

ومع هذا كله فلا بد من الاعتراف بانتصار الباطل على الحق ولو الى حين ، وتغلب الظلام على النور ، اذ ختمت انفاس ابن الخطيب بارض كان يضمر لها الحب العميق ، راثيا نفسه بتلك الانشودة الموسيقية الرائعة التي يقول فيها :

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب
وفات ومن ذا الذي لا يفوت !

مشيرا في نفس الوقت الى ما جاء من حكمة شعبية على لسان أحمد بن محمد بن خاتمة الانصاري فيما يتعلق بصروف الزمان وضربات الدهر الغشوم:

هو الدهر لا يبقى على عائذ به
فمن شاء عيشا يصطبر لنوائبه

فمن لم يصب في نفسه فمصابه
تفوت امانيه وفقد حبائبه !

وقال اديب ومفكر من اكبر ادباء المغرب العربي ومفكريه ، هو مالك بن النبي ، وكانه يشير الى عظمة ابن الخطيب وجلالة قدره : « كانت ثقافته ثمرة جهد متواصل في وسط متحضر متطور ، وهبة من الله الذي يهب الذكور لمن يشاء كما يهب الخلد للارواح الطاهرة » .

مراجع هذا البحث

1 — نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (ج 1 و 2 و 6) ، تاليف الشيخ الحافظ أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد المجيد — نشر دار الكتاب العربي — بيروت — القاهرة سنة 1949.

2 — ازهار الرياض في اخبار عياض ج 1 ، تاليف شهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني ضبط وتحقيق وتعليق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة التاليف والترجمة والنشر — القاهرة ، 1949 .

3 — الاحاطة في اخبار غرناطة (ج 1 و 2) تاليف ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق وتقديم محمد عبد الله عنان نشر مكتبة الخانجي — القاهرة ، 1973 .

4 — لسان الدين بن الخطيب : حياته وتراثه الفكري تاليف : محمد عبد الله عنان . نشر مكتبة الخانجي — القاهرة ، 1968 .

الرباط : محمد محي الدين المشرفي



تعقيباً على ما كتبه د. لويس عوض عن شخصية جمال الدين الأفغاني :

جمال الدّين الأفغاني

داعياً ومصلحاً

للأستاذ عبد الغني القاسمي

كتب هذا المقال قبل الحملات الصحافية المكثفة التي شنها كتاب ومفكرون مصريون في الصحافة المصرية ضد سلسلة المقالات التي نشرها د. لويس عوض في مجلة عربية تصدر بلندن . وتأخر نشر هذا المقال لاسباب فنية تعود الى مواعيد تسليم المواد الى المطبعة . ونود ان نؤكد ان هذا المقال اول ما كتب في الرد على الادعاءات التي تضمنتها كتابات لويس عوض عن المفكر الاسلامي الكبير وباعث نهضة الشرق والغرب جمال الدين الافغاني .

وقد تصدى لهذا الكاتب رجال اعلام في صحف ومجلات مصرية وعربية مما كشف النقاب عن الاهداف المريبة وراء نشر هذه السلسلة في مجلة اسبوعية حديثة الصدور تطبع في لندن .

و (دعوة الحق) ترى ان جمال الدين الافغاني الذي تعرض في فترات سابقة للنقد والطعن والتجريح قمة من قمم الفكر الاسلامي في هذا العصر واحد اعلام اليقظة في العالم الاسلامي . وان قيمة الافغاني لا تاتي من شخصه ، بقدر ما تاتي من الفكرة التي نذر نفسه لها ، وهي الوحدة الاسلامية وتجديد حيوية المسلمين والدفع بشعوبهم ودولهم الى البناء والتحرر والتقدم .

(دعوة الحق)

ليس بالصدفة ان يكون من بين اهتمامات بعض الكتاب المسيحيين من ابناء المشرق العربي تناول تاريخ الاسلام وسيرة اعلامه بالبحث والدراسة والعرض والتحليل ، لا سيما وان هؤلاء قد نشأوا وترعرعوا في وسط اجتماعي ينتمي اغلب افراده لهذا الدين الحنيف ، فما كان منهم الا ان احسوا بضرورة اندماجهم فيه وتجاوبهم مع مكوناته التاريخية وخصائصه الحضارية ، حتى لا يظلوا مطوقين بكابوس العزلة ، منطوين على انفسهم ، لا يتفاعلون مع ما جريات الاحداث التي يحيى في خضمها هذا الوسط .

واستطاع عدد من هؤلاء الكتاب ان يسبروا غور الدراسات الاسلامية ويساهموا بقسط وافر في اثراء خزانة تراثنا بأبحاثهم القيمة التي تشهد بطول

باعهم ورجاحة احكامهم والتزامهم بخصال الامانة والنزاهة ، رغم ان القارىء المسلم كثيرا ما كان حذرا ويقظا وهو يتابع كتاباتهم ؛ اعتقادا ان توجيهات الكنيسة وحساباتها لا بد وان تسخر هؤلاء الكتاب العرب لخدمة اهدافها ومخططاتها ، وقد تبين بوضوح ان الروح الصليبية قد طفت على سطح التفكير لدى بعض هؤلاء ولو بطريقة تلقائية ، لا ارادية ، فانبروا يدسون السم في الدسم وهم يخوضون في الحديث عن امور تتعلق بجوهر الدين الاسلامي واصول واحكام شريعتنا السمحاء .

انه لا يمكن اغفال ما تعمده الانجليز والفرنسيون من ايلاء العناية القصوى بمسيحيي المشرق في فترات معروفة . حيث كانوا يغدقون على ابنائهم بالتشجيع لمواصلة دراساتهم العليا في مختلف الاختصاصات العلمية ، يقينا منهم ان مراكز القيادة والتوجيه تقتضي التزود بالعلم والاعتماد على التكوين الصحيح ، وان احتلال المسيحيين للمواقع الحساسة في الوسط العربي الاسلامي لن يتاتى دون اخذهم بأسباب المعرفة وأسرار العلوم الحديثة التي لن يحظى بها المسلمون الا بعد ان يفوتهم الركب ويصبح بينهم وبين عالم اليوم بآفاقه وتطلعاته المستقبلية البون الشاسع والفارق البعيد .

وقد وجدنا من أعلام النهضة العربية مشاركة مسيحيون ، ولكن اغلبهم لم يسلك سبيلا اراد به الاساءة لهذه الامة ؛ بل عمل جادا وبكل اخلاص من اجل ان يبرهن على مصداقية التعامل فيما بين العربي وامته ، دون مراعاة لفروق الدين والعقيدة والنقطة الجغرافية والخصوصيات الاقليمية ، وجدنا من هؤلاء من تعلم واستفاد فعلم وافاد في مختلف العلوم والآداب ، كان لهم نصيب من المشاركة والاجتهاد ، حتى ملكوا اعجاب الناس واستحقوا تقديرهم ، وكان من حظ العرب ان تعزز جانبهم بعناصر نشيطة تتميز بالطفرة والحيوية وتؤدي دورها الطليعي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وعلى الطرف النقيض من هذا الوجه الناصع المشرق كان هناك من يتحين الفرص لتنفيذ المخططات الدنيئة التي تستهدف النيل من ديننا واخلاقنا وأصالتنا ، ويستخدم بعض ادواته الطيعة لبلوغ هذا الهدف ، وفي هذا النطاق يتساوى بعض من يتسمى بمحمد واحمد ومصطفى بمن يتسمى ببول وبيسير ولوقا ، ما دام ان الهدف الواحد الذي يجمع بين هؤلاء واضح وضوح الشمس ، وهو احباط المضمون الاسلامي لعملية النهضة وطمس الاشعاع الروحي للرسالة الخالدة التي حمل نورها الى البشرية جمعاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

لا جدال في كون العالم الاسلامي قد ابتلي بأزمات واصيب بنكبات ، واعترضت طريقه عقبات جعلته يعاني من ويلات التخلف والتقهقر ، وقد نأى عن صميم الدين وامسى أسيرا لما فرض عليه من اوضاع الضلال والانحراف ، ولكن الله رؤوف بهذه الامة ، رحيم بمصيرها ، وقد بعث اليها في كل الظروف من يقود سفينتها الى ساحل الامان .

ان بزوغ عهد النهضة العربية قد دفع بالعرب الى مخاض عسير ، والى الصعوبة في تقبل موجات التجديد والتحديث التي مست مختلف اوجه الحياة العلمية والاجتماعية ، وقد اختلطت مقاييس النقلة الحضارية العملاقة مع مقاييس الاندماج في العادات والطقوس الدخيلة ، في وقت بدا فيه التصميم الاستعماري راسخا على مهاجمة الاسلام في عمقه بطريقة استمالة الاجيال الصاعدة الى الذوبان في الشخصية الغربية واتباع مناهجها في التفكير والتنظيم والتخطيط الحياتي .. في هذه الظروف بالذات ظهرت حركة الاصلاح الديني التي دعت الى محاربة الاستلاب الروحي والحضاري الذي يتخذ انماطا متعددة ، والتمسك بجوهر العقيدة والتعلق بمناهج السلف الصالح في التفكير والتنظيم والتخطيط الحياتي .. وكان على راس رواد هذه الحركة فضيلة الشيخ جمال الدين الافغاني رضي الله عنه .

وقد كان لهذه الحركة الفضل الكبير في رسم الخطى الثابتة نحو ايقاظ العالم الاسلامي من سباته وانقاذه من مغبة سقوطه في الافخاخ التي نصبت له من قبل اعدائه ، كما كانت ايذانا بتصعيد الكفاح ضد الاستعمار الغربي حتى يرحل عن ديار الاسلام بعد أن غزاها بفكره وتوجيهه وتآمره ؛ وبعد ان استنزف قواها . واستحوذ على طاقاتها . ودور جمال الدين الافغاني لم يقتصر على بقعة دون اخرى ولم يختص بقطر مسلم دون آخر ، اذ ان جهاده كان ذا

توجه شمولي ، وغايته كانت هي خدمة الاسلام ورفع راية المسلمين واعلاء شأنهم بين الامم والشعوب حتى يعودوا كما كانوا الى طليعة التسيير الحضاري والتقدم العلمي والفني باسمى معانيه واغلى مراميه .

جمال الدين هذا ، كان افغانيا ، ولد سنة 1839 باحدى قرى كنر من اعمال كابول ، وهي قرية سعد اباد التي حورها اعتماد الدين فقال انها اسد اباد ، درس العربية وعلومها ثم انكب على التضلع في الفقه الاسلامي بفروعه قبل ان يتجه الى الفلسفة ومباحث الحكمة ، وقد انتقل الى الهند في مطلع شبابه وهناك درس العلوم الرياضية . وفي سنة 1857 اتجه في اول جولة له عبر بلدان الشرق الاوسط حيث ادى فريضة الحج وتعرف على الاوضاع السياسية والاجتماعية التي كان يعاني منها المسلمون بفعل التحولات التي كان يفرضها الاستعماريون على شعوب اختارت منذ امد بعيد الاسلام كمصدر تستمد منه طرائق حياتها ، وقد خلفت تلك الجولة في نفسية الرجل شعورا متدفقا بضرورة الدعوة الى التغيير الذي يسير في قناة العودة الى تعاليم الاسلام ومناهجه واساليبه القويمة ، ومن هنا كانت انطلاقة جهاده الطويل الذي لم يعرف الكلل او الملل طيلة حياته .

وقد عمل جمال الدين اثر عودته الى كابول في الدوائر الحكومية على عهد الامير دوست محمد خان، وبلغ من تقربه لهذا الامير ان صحبه معه في غزوة لهراة التي فتحها ليضمها الى ملكه ، وفارق الحياة اثناء حصار المدينة 1864 وخلفه من بعده ابنه شير علي خان الذي لم تعرف ايامه الاستقرار ولم يستطع بسط نفوذه على كل مناطق نفوذ ابيه ، حيث ثار عليه اخوته ، ولعب الانجليز دورا بارزا في تعميق هوة الخلاف بين الاخوة فكانوا يحرضون هذا على ذاك ، ويمدون كل طرف بالعتاد والمؤن ويحرضون الجميع على محاربة بعضهم البعض .

وقد انضم جمال الدين الى احد الاخوة وهو محمد اعظم خان وساعده على دخول كابول حيث انتصر على اخيه شير علي واطلق سراح اخيه الاكبر محمد افضل خان ونادى به اميرا على افغانستان ، الا انه لم يلبث اكثر من عام على كرسي الحكم حيث اختطفته يد المنية ، فصار محمد اعظم اميرا وتولى جمال الدين الوزارة الاولى ، وفي هذه الاثناء قوي نفوذ ابناء الامير واخذوا يتحكمون في تسيير شؤون الرعية ، واحس احدهم وهو صغير السن بالغرور والمناعة فاتجه الى هراة لمحاربة عمه شير علي المعتصم بها ، ولكنه انهزم امامه ، خاصة وان العم استنجد بالانجليز الذين امدوه بكل ما يتطلبه من وسائل للهجوم على كابول فجهز جيشا من مناصريه وحاصر العاصمة واغار على مواقع اخيه محمد اعظم والحق به هزائم مرة الى ان اجبره على الاستسلام ، فاستعاد مقاليد الحكم وعقد معاهدة مودة وصداقة و (اخاء) مع الانجليز سنة 1871 .

اما محمد اعظم فقد لزم نيسابور التي استقر بها شهورا قبل ان يلحقه الممات ، في حين لم يمس شير علي جمال الدين بسوء ، بل تركه ليعيش في مامن عن كل اذى ، ومع ذلك خشي جمال الدين على نفسه من مكر الانجليز ومكائده فخرج بنية اداء فريضة الحج ولكنه عرج على الهند ثم مصر حيث امضى فترة وجيزة في السويس والقاهرة تعرف خلالها على تلميذه ورفيقه الوفي الشيخ محمد عبده وبعض طلبة العلم من ابناء الشام ، وبالنظر الى تضايق بعض علماء الازهر من اقبال الاعداد الوفيرة من الطلبة على الحلقات التي كان يعقدها جمال الدين اثر مغادرة مصر والتوجه الى تركيا .

وهناك تعرف على الصدر الاعظم علي باشا الذي اكرم وفادته وعينه عضوا في مجلس المعارف ، ولكن حسن فهمي افندي الذي كان يضطلع بلقب شيخ الاسلام كان يغار من جمال الدين ويؤلب عليه كبار القوم ويتهمه بمزج الدين بالفلسفة ، وبلغ الصراع بين الرجلين درجة لم يستطع معها جمال الدين المكوث في تركيا فبارحها ثانية الى مصر التي اقام بها هذه المرة من 1871 الى 1879 ، وقد رحب به رياض باشا شيخ النظار وجعله ذا منزلة رفيعة عنده ، وفسح له المجال لالقاء دروسه ونشر مواعظه ، الا ان علماء الازهر كانوا له بالمرصاد ، فانبرى يساجلهم ويقارعهم بالحجج والبراهين ، فترصدوا به الدوائر ، وما كان منه الا ان قرر الاقتصار على التدريس في بيته ، وفي ظروف لاحقة قرر الاقتصار على مجالسة تلاميذه وانصاره في قهوة البوسطة قرب حديقة الازبكية ، وكانت هذه المجالسة تتم ليلا ويؤمها العشرات والمئات احيانا ممن هم شغوفون بالاستزادة

من العلم والمعرفة التي يزخر بها عقل هذا العالـم الكبيـــر .

كان جمال الدين يوازي بين اداء رسالتـه في نشر العلم برؤية متفتحة ، وبين دعوتـه الشباب ليتحمل مسؤوليته بالاسهام في حركة الصحافة التي كانت حركة فتية وحديثة العهد ، وكان جمال الدين يخشى ان تطال هذا الميدان يـد غير امينة تتولى توجيه الراي العام الى ما يريده الاستعمار واذنابـه من مزالق يهوى فيها شباب الامة ، ولذلك دفع ببعض السوريين الى انشاء جريدة « مصر » التي تولى رئاسة تحريرها اديب اسحق الذي كان وثيق الثقة بجمال الدين ، معجبا بشخصيته ، مقدرا فيه الغيرة على مستقبل الشباب ، وقد عمل اديب بنصيحة جمال الدين حين أشار عليه بالتوجه الى الاسكندرية ليسهم مع سليم نقاش في اصدار صحيفة « التجارة » .

وقد طلب جمال الدين من تلميذيه محمد عبده وابراهيم اللقاني أن يكتبا في الصحيفتيـن ، ويقول جمال الدين : « لا جامعة لقوم لا لسان لهـم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها ، فتعمـل عملهـم وتنسج على منوالهم » . وقد اعطى المثال هـو نفسه فمـلأ الصحيفتين بمقالاته وافكاره وتحليلاته التـي كان يذيلها بتوقيع (مظهر بن وضـاح) ، كـان يحث المصريين على مواجهة الزحف الانجليزي الاستعماري، وكان يقول لهم : انتم يا ابناء مصر درع للاسلام وفخر للعروبة ، تاريخكم تليد وتراثكم مجيد ، فكيف ترضون اليوم بأن يرضخكم الاستعمار الغربي لمشيئته ويفعل بكم ما فعل الذئب بفريسته ، اين سلاح الايمان الذي به بنيتم عزتكم وشرفكم .. » وكانت مثـل هـذه الكتابات تلهب مشاعر المصريين وينتقل صداها الى اطراف العالم الاسلامي فتبث النشوة بانبلاج فجر الاصلاح الذي كان الغاية المتوخاة ، والـذي كان يستنير بافكـار جمال الديـن المرشد ورجـل الاشعــاع .

وقد كان تأثير جمال الدين الافغاني بليغـا في بلورة الطموحات البناءة للمجتمع المصري ، ولم تتحمل السلطات الحاكمة تبعات هذاالتأثير ، اذ سرعان ما انعكس الى ثورة الوعي والضمير وتقرر ان يطرد جمال الدين من مصر ، والزمت الصحف بنشر الامر بالطرد متضمنا لاتهامات الصقت بالرجل كالزندقة والخروج عن الدين ، وكان من بين الالقاب التي ارادت الحكومة ان تتطاول بها على هذا العالم الفذ : ضلال الديـن والشخص المفسد والافغاني الافاق .

يقول الشيخ محمد عبده معلقا على قرار الطرد الصادر في حق استاذه : « لا ريب في ان الانزعاج بنفي جمال الدين كان عاما ، والكدر كان تاما ، ولكن جناب الخديوي اظهر سروره بما فعل وتحدث بـه في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار في رمضان ، فاظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في محضر الشيخ جمـال الدين » . وتشير بعض المصادر الى ان وراء أبعاد جمال الدين من مصر كان يقف بعض اتباع الكنيسة القبطية في الاسكندرية ممن كان لهم الحظوة لـدى الانجليز وممن كانت مواقفهم معروفـة من حركـة الاصلاح الديني التي كانت في نظرهـم مؤشرا على مرحلة سيضعف فيها نفوذهم ويتقلـص حجمهـم ويصبحون تبعا لذلك اهل ذمة وسط مجتمع اسلامي يهتدي بكتاب الله وسنة نبيه المصطفى .

من مصر ، يقصد جمال الدين الهند ثم ينتقل من آسيا الى اوروبا ويقيم بباريس ، وهو في كـل بقعة يخلف الصدى الواسع والبصمات التي يصعب محوها ، مساهماته فاعلة ومؤثرة ، ودعوته تنفذ الى اعماق صدور المؤمنين الذين رأوا فيه الرجل المصلح الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ولا بطش ظالم ، يجاهر بما يكفل للمسلمين عزهم وتقدمهم دون تفريط في تعاليم الدين ، فكان رمزا للسلفية التي تحارب ما اختلط في اذهان الناس عن الاسلام ومـا اصـاب عقيدتهم من اعراض التزمت والانغلاق والجمود .

ولكن البارز في مراحل حياة جمال الدين يظل هو ذلك العداء السافر الذي جوبه به ، ليس مـن الاستعمار الغربي فحسب ، بل من مسيحيي الشرق ومن فئة محدودة منهم كانت ترى في جمال الدين انه حجرة عثرة في سبيلها ، طالما انه يدعو الى يقظـة المسلمين مما يحدق بهم من اخطار ، وحيث انهـا كانت تعد نفسها الاداة الخطيرة التي تأتمر بمن يدين وإياها بنفس المعتقدات ، فقد حددت موقفها من هذا الداعية الكبير ونصبت نفسها في موقع المشكك في

شخصية جمال الدين والمكيل له ابشع التهم في دينه وسيرتـــه واخلاقـــه .

تعرضت الى هذا الجانب بالذات لاستدل على ما اوردته في مستهل هذا المقال عن اهتمام بعض الكتاب المسيحيين من ابناء المشرق العربي بتناول تاريخ الاسلام وسيرة أعلامه بالبحث والدراسة ، وانا موقن بان أحد هؤلاء وهو الدكتور لويس عوض لم يكن امينا ولا نزيها ولا موضوعيا من خلال ما كتبـــه في حلقات مؤخرا عن شخصية جمال الدين الافغاني في مجلـــة التضامن الصادرة في لندن ، فقـــد عمـــد لويس عوض الى عنونة هذه الحلقات بما اسمـــاه : « الايراني الغامض في مصر » ! وجعل بحثه ينصب على ثلاثة محاور هـــي :

1 ـ التشكيك في نسب الرجـــل ومولـــده ونشأتـــــه .

2 ـ احاطة مراحل حياته بالغموض والانتقاص من مصداقية دعوتـــه .

3 ـ الطعن في افكـــاره وآرائـــه بكيفيـــة ذكيـــــة .

وليس لويس عوض الذي نعرفه جيدا موافقـــه من التراث الاسلامي والعربي الاصيل ، أول من حاول الخوض في أمر جمال الدين ، اذ سبقه آباؤه الذين تأججت صدورهم بالحقد الدفين لهذا الرجل الذي صدع بالحق وفضح تعاونهم مع الاستعمار ونسجهم على منوالـــــه .

والى لويس الذي يشكك في نسب جمال الدين ومولده ونشأته اقدم هذه العلومات بايجاز يمليه الحيز المحدود الذي احصر فيه كتابتي :

جمال الدين بن صفتر (او صفدر) ينتمي الى اسرة عريقة حازت المجد والشرف في بلاد الافغان وهي تنتسب الى السيد علي الترمـــذي المحـــدث المشهور ، ويرتقي نسبه الى الامام الحسن بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ،وكانت اسرتـــه ذات باس وقوة ، سادت لفترة طويلة احدى الولايات الافغانية الى ان اغتصبها منها الملك محمد خـــان الذي اراد بذلك ان يخضع كل بلاد الافغان للسلطة المركزيـــة التي كانت تحت امرته ، والحقيقة ان ثمـــة روايات متعددة عن صحة نسب جمال الدين الى الافغان او ايران ، ولكن الارجح انه كان افغانيا ، فقد حكي عن الشيخ عبد الحميد الرافعي قاضي البصرة ان الوالي التركي طلب اليه بناء على امر جاءه من الاستانة ان يتلطف بجمال الدين فيسأله عـــن السر في هـــذا الالتباس الحائم حول نسبه ، دون ان يثير ريبته في الجهة التي ترغب في الاستفسار عن حقيقة اصله ، فلما سأله القاضي فطن الافغاني الى الامر واجابه : أليس من العجب أن تسأل الاستانة عن نسب شخص، بعد أن سبق لها أن عينته في احدى وظائفها ومنحته ثقتها ، وادخلته في سجلاتها على انه افغاني .

ويذكر جمال الدين على ان مصدر هذه البلبلـــة هو ناصر الدين شاه ايران الذي كان يشيع عنه انـــه ايراني حتى يستميله اليه ويظفر به فينتقم منه لانه دعا الناس الى الائتمار بما اقره الشرع الحكيم لا بما اقره الشاه من اذعان للانجليز في اخلاقهم وعاداتهم ، ويروى عن امير البيان الشيخ شكيب ارسلان انـــه التقى بسادة الافغان وعلم منهم أن جمـــال الديـــن منهم ، وان ادعاء ناصر الدين راجع الى رغبتـــه في التفاخر به قبل ان يدبر له مكيدة يتخلص فيها منه ، وهذا شأن العباقرة الذين يلقـــون من معاصريهـــم الجحود والعداء ما ينوء به الرجال العاديون حتى اذا فرضوا انفسهم على خصومهم ذهب هؤلاء يؤكـــدون انفسهم من المؤمنين بآرائهم ، ومن أكثر القوم حماسا لها ، وهي الا آراؤهم التي طالما نادوا بهـــا دون ان تتاح لهم فرص التعبير عنها والكفاح من اجلها .

وماذا يضير يا عم لويس ان يكون جمال الدين افغانيا او ايرانيا ، فكلا الشعبين شريـــف بهـــدى الاسلام ، وكلا الشعبين الافغاني والايرانـــي يديـــن بنفس العقيدة ، ولا اخال جمال الدين لو بعث حيا في هذه الاثناء سوى مجيب لك على هذا النحو : انني لا اعترف لبلاد الاسلام بأية حدود او فروق ، كلها بلادي التي افتديتها بجهدي الرامي الى توحيـــد غاياتهـــا واهدافها . لقد ركز لويس على ايرانية جمال الدين بهدف استعدائنا عليه نظرا لظروف التوتـــر التـــي تجتازها العلاقات فيما بين بعض العرب وايران ، وهذا احتمال وارد ، ولكنه نسي ـ ولا اقول تناسى ـ ان هذا التوتر قائم بالفعل فيما بين الانظمة الحاكمـــة

وليس فيما بين الشعوب التي تظل رغـــم الظروف العصيبة الراهنة مجتمعة على الديـــن الاسلامـــي ومتعلقة بقيمه الرفيعة .

ثم انك يا لويس وصفت جمال الدين بلعبه على الحبال وتقمصه لدور المهدي المنتظر ووعده لامــه بتوليتها على خراسان كحاكمة وانه كان بابيا وبهائيا ومنبوذا .. وزعمت ان رحلاته كانت غامضة ، واغلب ظنك انها كانت لاكتساب المال والشهرة على حساب المبادىء والاهداف .. ما هذا الهدف ؟ انــه كان خليقا بك الا تفيض بما رسخه في نفسك آباؤك مــن حقد وضغينة ازاء علم قد اسدى خدمات جليلــة للمشرق في فترات حالكة حارب فيها الظلم والطغيان والتآمر على التاريخ ، وقد استفاد من ثمار جهــاد الافغاني المشارقة على اختلاف الوانهـــم الدينيــة والمذهبية والعرقية ، ولتعلم ان لدعوة جمال الدين مصداقية نفذت بشعاعها الطاهر الى اعماق المسلمين وليس من السهل عليهم طمسها والتنكر لها .

اما الطعن في افكار الرجل وآرائه ولو بطريقة لويس الذكية فأمر متجاوز وهو جزء من اطار عــام لتصفية حساب مستمر فيما بين الطليعة الاسلامية الحية واعدائها التاريخيين ، وفي هذا الصدد نحن لا نعيب على لويس اختياره الديني ، ولكننا نعيب عليه التصدي للافكار وآراء اقطاب الفكر السلفـــي بوازع التشكيك والتنقيص والطعن ، وبروح العداء السافر والتعصب المقيـــت .

ان ما كتبه لويس عوض عن جمـــال الديـــن الافغاني لا يعدو ان يكون حلقة في سلسلـــة مـــن الكتابات التي تطفح بها بعض المجلات التي تريد منها ان تكون منبرا لنشر الالفة والوئام والتسامـــح بين الاشقاء العرب مهما اختلفت انتماءاتهـــم الدينيــة والمذهبية ، والا تتيح المجال لمن يريدون بذر المزيد من الشقاق فيما بين الاشقاء الذين اجتمعـــوا على المنهج الواحد والهدف الواحد وعلى سبيل الاخاء والوحـــدة .

عبد الغني القاسمـــي



الطِّبُّ الأندلسيُّ

بين هفوة الإهمال وغفوة النسيان

(3)

للدكتور عبد الله العمراني

في الاعوام التي تلت الفتح الانـدلسي ، كان يسود ميدان الطب نوع من الجبرية ، والاعتقاد بالقضاء والقدر ، يتمشى مع تعاليم المجتمـع الاسلامـي ، وتقاليده ، وتطلعاته ، فكان الاطباء – او الحكماء حسب التعبير العصري آنذاك – يكتبون في مواضيع كشف الطالع ، وعن تأثيرات النجوم والاجواء Atmospheres وعن تحول المعادن من خسيس الى نفيس . وكانت عمليات الفصد Flébotomia والحجامة Cupping تجري عند ما يوجد القمر في وجه من أوجهه المعلومة، او حينما يحتل منزلة من منازله المعروفة . ثم ان الاعشاب الطبية يجب أن تجمع تحت برج نجم معين . ولكي يكون عمل « الحكماء » مجديا ، كانوا يلجـاون احيانا الى « الروحانية » فينطقون بكلمات مبهمـة ، ويعمدون الى تعازيم ورقـى . وكان بعـض هؤلاء الحكماء يقيمون في ديارهم ما يشبـه المتحـف او الصيدلية ، فيعلقون على جدران بيوتهم جثثا محنطة للبـوم OWLS والهـام Barn-Owls والتماسيح، ويعرضون في قنيناتهم وقواريرهم ضفـادع البـر TOADS والاجنـة FOETUS والعقارب الى غير ذلك من الحيوانات التي قد تثير الاشمئزاز نظـرا لقذارتها او قبح منظرها . وكانوا يبيعون بثمن الذهب سوائل وأشربة ومراهم ذات تركيب طبي عجيـب ، وكان الطبيب يحرص على هـذا التركيـب او ذاك ، ويجعله سرا مكتوما لا يفشيه الا لخلفـه او احـب الاقرباء اليه . وكان عدد آخر من الحكماء يعالجـون مرضاهم على طريقة الكهانة الروحية Nécromancy كما كانوا يحيطون انفسهم بمظاهر مميزة ، ويقومون بطقوس خاصة تضفي على أعمالهم الوانا من الجدية والمهابة والوقار المصطنع احيانا .

وسرعان ما ينضج جيل من الاطباء جديـد ، فيبدأ رد الفعل من جانبهم ضد هذه الممارسات غير المعقولة احيانا . يأخذ هذا الجيل في شق طـرق خاصة ، وطرائق جديدة مثمرة ، طبعـت الطـب الاندلسي الذي أصبح قائم الذات ، ثابت الكيـان ، بطابع خاص يكاد يخلو من التاثيـرات المفترضـة الغريبـة ، او التأثيـرات الموروثـة المتعلقـة بالسلـف : ANCESTRAL

ان مذهب (1) الخبرة او التجربة Empiricism الذي كانت تعالج به الامراض حسب المعتاد ، قد وقع التخلي عنه الآن في الانـدلـس ، وتولـى الاطبـاء الاندلسيون علاج مرضاهم حسبما تتطلبه حالة كـل منهم على حدة ، مع الالتفات الى شهية المريـض ، وبنيته ، وخلقه ومزاجه . ان الفكرة التي اصبحت الآن مقبولة على النطاق العالمي – فكرة انه لا توجد امراض ، وانما يوجد مرضى – تبدو الآن واضحـة جلية في الطب الاندلسي ، سواء في ناحيته العلمية النظرية ، او في مجالاته العلمية التطبيقية .

وهكذا ، بعد ان كان الطب يذهـب عقيديـا ، ويسير سيرا نمطيا معتادا « روتينيا » في الاعـوام الاولى من تاريخ الاسلام بشبه جزيرة ايبريا ، اصبح في النهاية ، في اواخر القرن الثالث الهجري (اواخر التاسع الميلادي) يكسر القوالب والانماط القديمة ، ويفتح آفاقا جديدة لم يكن يلمحها احد من قبـل ، وصار الاطباء يسلكون طرقا خاصـة في التفكيـر ، ويناقشون القديم ، ويسمحون لانفسهم بابداء الراي السديد النزيه .

هديـة امبراطـور بيزنطـة

ازدهر الحكم الاموي بالاندلس ، واعتلى عرش البلاد عبد الرحمن الثالث الذي لم يلبث ان اعلـن نفسه خليفة واميرا للمؤمنين ، وتلقب بلقب « الناصر لدين الله » . خطب وده ملوك اوروبا ، وارسلوا اليه سفراءهم وهداياهم ، ومن هؤلاء امبراطور بيزنطـة قسطنطين (2) السابع الذي ارسل اليه في اوائـل سنة 338 هـ (949 م) سفارة تحمل هدايا ثمينة من جملتهـا نسخـة اغريقيـة اصيلـة من كتـاب (ديوسقوريدس) (3) المعروف عن المادة الطبيـة : DE MATERIAMEDICA .

---

(1) اصطلاح ماخوذ من الكلمة الاغريقية PEIRAO بمعنى اختبر او اجرب . والمذهب التجريبـي في الفلسفة يتخذ التجربة اساسا وحيـدا للمعرفة . وللمدرسة التجريبية في الطب طائفة من الاطباء القدامى (امثال الطبيب الروماني سيلسوس CELSUS والطبيب الاغريقي جالينوس GALNUS يسروا لنا ادراك طرق تفكيرهم وممارساتهم الطبية . اما اتباع هذه المدرسة المتاخرون ، فيجافون كل دراسة نظرية ، حتى تلك التي تتعلق بالتشريح ، ويسترشدون فقط بالعرف وبخبراتهم الفردية . والطبيب التجريبي – نظرا لنقصان المعرفة النظرية لديه – يصف العلاج لمرضاه عن طريـق الحدس والتخمين ، وطبقا لاسم المرض ، او الاعراض المرضية ، دون نظر او تفكير في بنية المريض ، او مزاجه ، او الظروف والملابسات المحيطة به .

(2) وهو ابن ليون Constantine الملقب بالارجواني اي لابس الارجوان : Porphyrogenitus السادس ابن باسيل الاول . حكم من 913 الى 959 م . يذكر البعض اسم الامبراطور ارمانيـوس (او رومانين) Rumanos بدلا من قسطنطين . ويذكر البعض الآخر اسم رومانوس الثانـي . والواقع ان رومانوس الاول (920 – 944) هو الذي شارك قسطنطين في الحكم ، وورد اسمهمـا مسطرا في الرسالة الامبراطورية الموجهة الى الخليفة : « قسطنطين ورومانين الملكان العظيمان ملكا الروم » . اما رومانوس الثانـي فخلف قسطنطين في الحكم سنة 959 م ... هذا ووصلت السفارة الى قرطبة – كما عنـد المؤرخ الاندلسي ابن حيان – في صفر وكان حفل الاستقبـال الرسمي في 11 ربيع النبوي سنة 338 (948/9/8) .

(3) هـو بيدانيوس (او بيداسيوس) ديوسقوريديس العين زربي : Pédacius Dioscordés Anazarbus طبيب اغريقي اشتهر في القرنيـن الاول والثاني الميلاديين . رافق الجيوش الرومانية عبر اقطار عديدة بصفته طبيبا ، فتمكن من جمـع اعشاب كثيرة شفعها بملاحظاته الشخصية فكان بذلـك كتابه الذي كان له التاثير البالغ خلال ازيد من 15 قرنا ، وذلك في مجال علم النبـات والمـواد الطبية . يقول اصحاب موسوعة شامبيرس ان الكتاب لا زال له التاثيـر في الاوساط التركيـة والمغربية . ترجم الكتاب الى اللغات الايطالية والالمانية والفرنسية والاسبانية . وتوجد ترجمتـه العربية مبثوثة في مختلف مكتبات اوروبا ، ولكنها ما زالت مخطوطة لم تطبع .

وبما ان الاندلسيين لم يكونوا يتقنـون اللسان اليوناني ، فان الخليفـة ارسل الى الامبراطـور البيزنطي يسأله ارسال احد العارفيـن باللغتيـن الاغريقية واللاتينية ، ليسهم في ترجمة الكتـاب الى العربية ، فبعث له الراهب نيقولاس الذي وصل الى قرطبة سنة 340 هـ (951 م) .

وتم تعريب الكتاب على ايدي فريق من العلماء ، فيهم المسلم والمسيحي واليهـودي ، لان البحـث العلمي من جهة ، وروح الاسلام السمحة من جهـة ثانية ، لا يعترفان بالميز العنصري او الديني بأى حال من الاحوال . وكان هذا الفريق العلمي يتالف مـن الآتية اسماؤهم (4) :

1 ـ الراهب نيقـولس .
2 ـ حسداي بن شبروط الاسرائيلي .
3 ـ محمد المعروف بالشجار اي النباتي .
4 ـ رجـل يعـرف بالبسبـاسي .
5 ـ ابو عثمان الجزار الملقب باليابسة .
6 ـ محمد بن سعيـد الطبيـب .
7 ـ عبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم .
8 ـ ابو عبد الله الصقلي وكان يتكلم الاغريقية.

قامت اللجنة بمهمتها خير قيام ، فبحثت عـن مقابل الاسم الاغريقي في اللغة العربية او في اللهجة الاندلسية. وكان لزاما ان تسقط اللجنة من اعتبارها، النباتات التي لا تنمو بالاندلس ، وان تترجم فقط تلك التي تنمو بها ، مع اضافة النباتات الخاصة بالاندلس، والتي لا توجد في الاصل الاغريقي . ولاجل تحقيـق هذا الهدف ، كان لا بد من الطواف بانحاء المملكة ، في رحلات استكشافية تجول في السهل والجبل ، فـي الداخل والساحل ، بغية جمع الاعشاب والنباتات ، وجمع الملاحظات والموازنة بينهما . وبعبارة اخرى: انجاز مهمة الدراسة والبحث ، على خير وجه ممكن، في ميادين علوم النبات : Botany والصيدلـة : Pharmacology والطب . وسيظـل كتـاب « المادة الطبية » لديسقوريديس ، قطب رحى البحث العلمي في الاندلس ردحا من الزمان ، حيث سيدرسه وينقحه ويؤلف في موضوعه علماء اندلسيون عديدون من بينهم سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل ، وابو جعفر احمد بن محمد بن السيد الغافقي ، وهو غير الغافقي طبيب العيون ومؤلف كتاب (المرشد فى الكحل) الذي سياتي الحديث عنه ، ومن بينهم ايضا الوزير المطرف عبد الرحمن ابن وافد اللخمـي . وبعبارة اخرى يمكن القول ان علم المعالجة النباتية : قد بدا يؤتي ثماره الناضجة المرجوة ... وهكذا انجزت دراسات هامة عديدة عن نباتات مثل خانق الذئـب (5) ، وحـب الانيسون او حبة الحلاوة كما يسميه المغاربـة) ، والحماض (6) ، والترياق ... وانتجت أدوية كثيرة مثل الحبوب الكبيرة : والاقراص ، وقطرات العيون ، واللعوقات ، والزيوت ، والمراهم ، واللازوقات والحقن الشرجية (الجهاز والمادة معا) ... الى غير ذلـك .

---

(4) اغفل فيديل فرنانديث اسمي الشجار والبسباسي ، واتى بدلهما باسم جـون دي كورث سفيـر الامبراطور الجرماني اتون الكبير لـدى البلاط القرطبي . وذكر كونثليث بالينثيا في كتابه عـن الادب العربي الاسباني اسم الخزاز بدل الجزار .

(5) خانق الذئب او خانق النمر : Aconite هو نبات طبي من فصيلة الشقيقيات ، ذو جـذور مغزلية الشكل ، اوراقه شبيهة بالكف ، وزهراته زرقاء اللون ، وقد يكون لونها ـ في القليل النادر ـ أبيض . يزرع في الحدائق للزينة . كل انواعه مسمومة ، غير انه يستعمل فى العلاج الطبي كمهدىء. ذكره ابن الحشاء في كتابه (مفيد العلوم ومبيد الهموم) وقال عنه انه غير معروف بالمغرب . اما ابن حموش الجزائري فحاول ان يعرفه في كتابه (كشف الرموز في بيان الاعشاب) قائلا : اظنـه « بوزعكـة » .

(6) الحماض او الحميضي : نبات دائم الاخضرار ، من فصيلة الحماضيات . يستعمـل كتابـل من التوابل ، نظرا لحموضة مذاقه . وهذه الحموضة راجعة الى ما يحتوي عليـه من « اوقصـلات البوتاس » (البوتاس هو أكسيـد البوتاسيوم) ، أوراق الحماض واسعة كأوراق الهندباء (القرعة)، وزهراته مخنثة ، اى انها تحتـوي على عضوي التذكير والتانيث معا .

ان دراسة النبات كعلم ، وممارسة الطب كمهنة، وتطبيق النظريات العلمية كفن ، كل ذلك اصبح الآن عملا قوميا ممتازا ، وبات في الامكان حينئذ التحدث عن طب اسلامي – اندلسي صميـــم . وعـن مدرسة علمية شاملة ، تزعمها عالم اندلسي قـــح ، هـــو ابو القاسم مسلمة بن احمد المجريطـــي ثم القرطبـــي (ت 394 هـ – 1004 م) الذي عــاش فـي زمـن الخليفتين الامويين الحكم الثاني وابنه هشام المؤيد ، ولم يلتحق بالرفيق الاعلى ، الا بعد ان شغل بنبوغه ، وشمل بفضله وعلمه وتعليمه عدة اجيال . وعلى الرغم من ان ابا القاسم المجريطي كان مهندسا وفلكيا اكثر منه طبيبا ، نجده انجب اتباعا وتلاميذ عديدين ، لـم ينجب عالم بالاندلس مثلهم ، معظمهم برع في الرياضيات والهندسة والتنجيم الى جانب فن التطبيب . ونذكر منهم على سبيل التمثيل لا الاستقصاء :

1) ابا القاسم اصبغ بن محمد بن السمـــح المهندس الغرناطي . كان بارعا في علم النجوم وفي الهندسة ، وله مع ذلك عناية بالطب . توفي في رجب 426 (ابريل 1035) بعد ان عمر ستا وخمسين سنة شمسيـــة .

2) ابا القاسم احمد بن عبد الله بن عمر بن الصفار القرطبي ثم الداني . كان عالما بالهنـــدسة والعدد والنجوم . وتوفي في دانية ، قاعـــدة حكـــم الامير مجاهد العامري .

3) ابا الحسن علي بن سليمان الزهـــراوي – نسبة الى مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة ، وهو غير ابي القاسم الزهراوي الذي سياتي الحديث عنه– فقد تتلمذ ابو الحسن هذا على مسلمة المجريطي ، وصحبه مدة من الزمان ، وكان ابو الحسن الزهراوي عالما بالعدد وبالطب والهندسة .

4) ابا الحكم عمرو بن احمد بن علي الكرماني القرطبي ثم السرقسطي . كان من الراسخين في علم العدد والهندسة . رحل الى المشرق ، وجلب الى الاندلس – لاول مرة فيما نعلم – كتاب (رسائـــل اخوان الصفا) . كان ابو الحكم الكرمانـــي مهندسا وطبيبا جراحا . يقول عنه ابن اصيبعة : « وله عناية بالطب ، ومجربات فاضلة فيه ، ونفوذ مشهـــور في الكي ، والقطع ، والشق ، والبط ، وغير ذلك من اعمال الصناعة الطبيـــة » .

5) ابا مسلم عمـــر بن احمد بن خلـــدون الحضرمي ، من اعيان اشبيلية ، ومن تلاميذ ابـــي القاسم المجريطي . كان فيلسوفا ومهندسا ، ومنجما وطبيبا . توفي سنة 449 هـ (1057 م) ، تاركـــا وراءه تلامذة عديدين من مهندسين ، وفلكيين ، واطباء امثال ابي جعفر احمد بن عبد الله المعروف بابـــن الصفار المتطبب ، وعبد الله بن احمد السرقسطي ، وابن البوقشى الطليطلي .

نضـــج ونبـــوغ

من الصعب – ان لم يكن من المستحيـــل – ان نتتبع في هذا البحث كل النابغين من اطباء الاندلس، وذلك لجملة اسباب :

ا – لطول الفترة الزمنية التي تستقطبها هذه الـــدراسة .

ب – لخصوبة تربة الاندلس ، ووفرة انتاجها وجودته ، في جميع الميادين بما في ذلـــك ميـــدان الطـــب .

ج – لان النبوغ يمكن ان يتاتـــى في اعصـــر وبيئات مختلفة ، فيتدفق هنا وهناك ، ولا يتقيد بزمن دون زمن ، او جيل دون آخر . ولكننا هنا نقتصر على فترة النضج ، وبلوغ الاشد ، في عمر دولة الاندلس، وهي الفترة المعطاء في عمر الفرد كذلك ، وللدول – كما يقول ابن خلدون – اعمـــار طبيعيـــة كمـــا للاشخـــاص .

د. عبد الله العمراني

الوقف في التشريعات القديمة

للأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله

لقد كان الوقف معروفا في القديم ، ولا سيما عند الرومان بأقسامه المعروفة اليوم (1) ، فمن القواعد التي كانت معروفة في الفقه الروماني ، ان الاشياء المقدسة من معابد ، وما تحويه من أدوات وآلات واشياء ثابتة ومنقولة ، تحبس عن التداول ، ولا يمكن لاحد أن يستبد بها ، او يستأثر بها ، لانها من حقوق الاه ... !! وكانت ترصد عدة أراضي فسيحة الارجاء ، رحبة الحدود ، على الآلهة والمعابد ، في بلاد مصر (2) والمغرب (3) القديم ، بحيث لا تكون تلك الاراضي محلا للتصرف التمليكي ، وهو ما يعرف في الاصطلاح الحديث للفقه الاسلامي بالوقف الخيري ، كما ان اليهود كان لهم ما يشبه ذلك ... وكان الوقف ، أيضا ، معروفا عند الامم المسيحية (4) لعهدنا كما سنرى فيما بعد (5) ...

فالامم على اختلاف اديانها ومعتقداتها تعرف انواعا من التصرفات المالية لا تخرج في معناها عن حدود معنى الوقف عند المسلمين ... وذلك لان جميع الامم قبل الاسلام ، وبعده كانت تعبد آلهة على الطريقة التي تعتقدها ، وكان هذا داعيا ، لان يكون لكل أمة معبد ، ولكل دين مكان ، ولكل عقيدة طقوس ، ولكل ذلك اناس يقومون بها ، ويختصون بأمرها ، ولابد لهذه المعابد من عقار يرصد لها ، وينفق من غلاته ، على القائمين بأمرها ، والمعنيين بشؤونها ، كما هو معروف عند الامم قبل الاسلام ...

ففكرة حبس العين عن التملك والتمليك ، وجعل منافعها مخصصة لجهة معينة ، فكرة قديمة معروفة قبل ظهور الاسلام بزمن بعيد ..

وكان رؤساء المعبد تجارا يتاجرون باسم معابدهم ، ويكسبون من الضرائب التي تقدم للمعابد كسبا فاحشا (6) .

فقديما امتلكت المعابد أرضين واسعة شاسعة، استغلتها باسم الآلهة ، ودرت عليها أرباحا كثيرة ،

---

(1) انظر : « بين الشريعة الاسلامية والقانون الروماني » . د. صوفي حسن أبو طالب ، ص 150 / « مدونة جستنيان في الفقه الروماني » ، تعريب : عبد العزيز فهمي ، ص : 57 .

(2) انظر : « احكام الوقف في الشريعة الاسلامية » ج 23/1 ، د. محمد عبيد عبد الله الكبيسي / «تاريخ القانون» : د. هاشم الحافظ ، ص : 164 ، ط : العاني 1972 / « تاريخ القانون المصري القديم » : د. شفيق شحاتة ص : 90 .

(3) « وصف افريقيا » : محمد الحسن الوزان الزياتي (اليون الافريقي) ص : 77 ، ط : الرياض ، المملكة العربية السعودية/ « افريقيا تحت أضواء جديدة » للمؤرخ : « باذل دافد سن» ص : 112 .

(4) « الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية » : محمد سلام مذكور ص : 7 / « الوقف في الشريعة والقانون » : للاستاذ زهدي يكن ص : 184 / « احكام الوقف في الشريعة الاسلامية » ج 1 / 27 : د. م. ع. ع. الكبيسي ، ط : الارشاد ـ بغداد.

(5) « القانون المدني المقارن » : د. محمد لبيب شنب ص : 67 ، بالرونيو .

(6) « تاريخ العرب قبل الاسلام » : د. جواد علي ، ص : 65/ ج : 8 .

وهي ارضون سجلت باسمها ، منذ نشأت المعابد وظهرت ، فارتبطت بها ، وصارت وقفا عليها ، منها ما سجل في عهد (المكربين) (7) اي حكومات رجال الدين في العربية الجنوبية ، يوم كان « المكرب » هو رجل الدين والحاكم الدنيوي ، فكانت نظرتهم ان الارض وما عليها ملك للآلهة ؛ ورجال الدين الحكام ، هم خلفاء الآلهة ، فهم وحدهم الذين لهم الحق في الحكم ، والفصل بين البشر ، وما يقرونه حق ، وما يخالفونه ويحرمونه هو الباطل ، وهم الذين يفصلون بين الحلال والحرام ...

وكانت للمعابد الاخرى احباس خصصت بها ، وحميت للمعبد ، ولما ينذر له ، ويحبس عليه من حيوان يرعى فيه ، فلا يتطاول عليه احد (8) .

ولم تحبس الاوقاف ، وتقدم الهدايا لمجرد شفاء الآلهة انسانا ، من مرض خطير ، او رحمة تنزل عليه ، او بركة تحل به ، لتكون له ذرية ونسل ، بل تقدم في المناسبات الخطيرة ، المتعلقة بالاحوال الجوية مثلا كانحباس الامطار ، وكحماية الشعب ونصره في حرب ضروس مع شعب آخر ، فيطلب الشعب من الاهه الخاص ، ومن الآلهة الاخرى حمايته ونصره ، وتوفيقه على عدوه في تلك الحرب ، يطلب ذلك الملك ، وتطلبه رعيته ، وعلى الشعب ان يقدم الى الآلهة جعلا في مقابل النصر والمساعدة يتوقف على نوع المهمة التي طلب من الآلهة اداؤها وتقديمها لذلك الشعب ...

وقد امتلكت المعابد ارضين واسعة شاسعة استغلتها باسم الآلهة ، ودرت عليها ارباحا كثيرة (9) . وقد كان للمعابد مخازن عديدة ، خزنت فيها حاصلات تلك الارضين ، وما اعطته من غلات ، وما يقدم الى المعابد من نذور وضرائب عينية ، وتقوم ادارات المعابد بتصريف هذا الحاصل ببيعه وتوزيعه على الموظفين ..

وقد اجرت المعابد الارضين « الالاهية » للاسر الكبيرة ، سادة القبائل ، يستغلونها بموجب عقود اتفقوا عليها مع « المعبد » ، وتعرف هذه الاتفاقيات ب « وقف » .. وليست هذه الاتفاقات ، باتفاقات ثابتة معينة لجميع الامكنة والازمنة بالطبع ، بل هي اتفاقات مثل سائر الاتفاقات التجارية تتبدل وتتغير بحسب الامكنة والازمنة ، ونفوذ المتفقين ... فقد يكون المستغلون اقوياء ذوي سلطان ، استولوا على الارض منذ عهد طويل ، فليس لدى « المعبد » الا الاتفاق بالشروط الممكنة مع المستغلين لتلك الارض طوعا او كرها (10) .

وقد شددت شرائع الجاهليين في وجوب المحافظة على حرمة وحماية المحبوس من ارض ومن حيوان ، وعدم الاعتداء عليها ، وهددت من يتجاسر على مال الارباب بعقوبة تنزل عليه منها ، وبغضبة الآلهة عليه ، وبمصير سيء يلحق به ، فضلا عن العقوبة التي تنزلها المعابد به ، قد تصل حد القتل .

ويجب ان نتذكر القصة التي يرويها اهل الاخبار عن سرقة « كنز الكعبة » وذلك قبل بنائها بقليل ، ووضع السراق ما سرقوه عند (دويك) مولى لبني (مليح بن عمرو) من خزاعة ، وقطع اهل مكة يده لذلك !! ..

وما ذكروه ، ايضا ، من ان سارقا سرق من مالها زمن جرهم ، فانتزع المال منه (10 مكرر) .

وقد ورد في نص من نصوص « المسند » وعيد «بان ينزل الالاه، رب السماء غضبه ولعناته وكل سوء،

---

(7) ما يتقرب به الانسان الى الاهه ، يقال له : « اكرب » في السبئية من اصل « كرب » بمعنى « قرب » ، ومن هذا الاصل لفظة « مقرب » التي تعني « مقرب » اللقب الذي اطلقه السبئيون على الكاهن الحاكم ، الجامع للسلطتين الدينية والزمنية في شخصه ، وتعني لفظة « كرب » ، التقرب من الآلهة كذلك ، وهذا الكاهن الملك ، وهو رجل دين يحكم الشعب حكما مزدوجا دينيا ودنيويا يعرف كما قلنا « مكرب » اي مقرب ، وذلك لتقربه القرابين الى الآلهة ، وتقريب الناس من الهتها ، وهو اقرب المخلوقات بالطبع الى الآلهة ، والوحيد الذي يمثل سلطتها ، وارادتها على الارض ، ويعرف اوامرها ونواهيها ...

(8) « تاريخ العرب قبل الاسلام » : د. جواد علي ، ج 138/7 .

(9) تشير بعض اللوحات الموجودة اليوم في المتحف الوطني في الجمهورية العربية المتحدة الى فعل الخير ، والتقرب الى الآلهة ، كاللوحة التي تحمل رقم 72 دليل «ماسبيرو» وعليها بعض النقوش التي تتضمن وقف عقار على بعض الكهنة في الاسرة الرابعة ، وهي تحت رقم (8432) فهرس المتحف ، (نشرة وزارة الاوقاف المصرية ، الموسومة : « وزارة الاوقاف بين الماضي والحاضر » .

(10) « تاريخ العرب قبل الاسلام » : د. جواد علي ، ص : 12 ـ 13 / 8 .

(10) مكرر ابن هشام ص 130 / ج : 1 حاشية على الروض الانف 1 / 130 .

وان يلحق البؤس بكل انسان لا يبالي بأوامر ذلك الالاه ، فيسرق محرمه ، ويسرق من اموال محرمة بقراً ، وغير ذلك ، كما أشير الى العقوبات التي ستنزل بذلك الانسان المتطاول المخالف لاوامر الآلهة عقوبات العذاب تنزلها الآلهة على اولئك الاشخاص » .

ويبدو ان لهذا النص اهميته كبرى ، فهو يدل دلالة قطعية على ان الانسان عند الحاجة ، وعند تصوره وجود منفعة وفائدة له ، لا يعبأ بسرقة آلهته ، وبالسطو على ما في معابدها من أموال وحلال .. وانه لا يتردد من السطو على ما في معابدها من ذخائر واعلاق ، واموال ونفائس وما يرتبط بأوقاف تلك الآلهة واخذ ما فيها . . . ولا فرق في ذلك بين انسان قديم ، كان للدين عليه ، وعلى مجتمعه نفوذ وسلطان ، وبين مجتمع متحضر حديث ترقى فيه الانسان ، وسما فكره ، وارتفعت فيه مداركه ومزاياه .

وقد صار من المحظور صيد الحيوان في الحرم ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، وفسق عن امر ربه ، وكان آثما ، قد عرض نفسه لغضب الناس عليه ، فصار الحرم مرتعا آمنا للطيور ، ولا زال الناس يتحرشون بطيور المعابد ، ولا يمسونها بأي سوء ، بل يقدمون لها ما تحبه من الماكول لتعيش عليه .. وجعلت المعابد لحيواناتها وللهدي وللقلائد مواضع خاصة ، اختارتها لترعى فيها ، جعلت « حمى » للارباب ، لا يجوز لاحد رعي سوائمه بها ، ولا التطاول على دواب « تلك الاحمية » لانها مما حبس للاصنام !! ؟ .. وتكون هذه المواضع مخصبة معشوشبة ذات حياة ، وقد تزرع ، وتكون غلتها للمعبد (11) .

وفي الوقت الذي طغت فيه الروح المادية على العالم القديم ، كما هي طاغية ، اليوم ، على العالم الحديث ، حتى غدا الانفاق والبذل ، واجهة للحصول على المكاسب السياسية والاجتماعية ونحوهما . . . وفي الوقت الذي تتبنى فيه « فلسفة الذرائع » التي يخضع لها الغربيون وغيرهم رقابهم ـ هذا المفهوم الخاطىء في الجود والعطاء ، يظل القرءان العظيم ، ومفهومه في الانفاق مشعلا وضاء للاجيال البشرية ، تجد فيه روحا سامية ومثلا رفيعة ، وفكرا نيرا . . . تستلهمه في مسيرتها نحو التقدم والخير بما تقرا فيه من آيات بينات : لا تبرر الوسيلة من اجل الغاية ، ولا تجعل العطاء مرهونا بعرض دنيوي زائل ، وانما تجعله لوجه الله ، او كما نعبر احيانا لوجه الخير والفضيلة، وتنأى به عن كل قيد دنيوي . .

وثمة صورة في القرءان لذهاب اعمال الكافرين هباء وعدم حصولهم على ثوابها . . . مع انها لم تعدم أثرا من آثارالخير والاحسان ، الا انهم لما توجهوا بها، اذ انفقوها الى غير الله ، وجعلوا بذلها بعيدا عما ينبغي من التوجه في كل عمل اليه ، صارت صورتها في الضياع والذهاب ، وعدم جدواها في يوم الحساب ، كصورة الرماد الذي اذهبته الريح العاصفة الشديدة الهبوب ، فتناثر في الاجواء، لا يلم شعثه،ولا تجمع ذراته . . . فالقرءان يقول : « مثل الذين كفروا بربهم ، اعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الظلال البعيد » (12) .

قال البيضاوي : « لا يقدرون « يوم القيامة » مما كسبوا « من اعمالهم » على شيء « لحبوطه » ، فلا يرون له اثرا من الثواب .. وهو فذلكة التمثيل ، « ذلك » اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم انهم محسنون ، هو الضلال البعيد ، فانه الغاية في البعد عن طريق الحق (13) .

فالكفار والمشركون لا يحصل شيء لهم من الاعمال التي ظنوا انها منجاة لهم ، وذلك لانها فقدت الشرط الشرعي ، اما الاخلاص فيها ، واما المتابعة لشرع الله . . . فكل عمل لا يكون خالصا ، وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل ، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معا ، فتكون ابعد من القبول حينئذ ، ولهذا قال الله تعالى :

(11) « تاريخ العرب قبل الاسلام : ص 211 / 6 .
(12) سورة ابراهيم : 18 .
(13) تفسير البيضاوي : 75 / « الطبيعة في القرءان » : ص : 401 .

« وقدمنا الى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثورا » (14) .

ذلك ان المشركين عملوا اعمالا ، اعتقدوا انها على شيء ، فلما عرضت على الحكم العدل الذي لا بجور ، ولا يظلم احدا ، اذ انها لا شيء بالكلية ، وقد شبهت في ذلك بالشيء الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية (15) .

يقول الشيخ ابراهيم اللقاني المالكي (ت 1041هـ) في جوهرته :

وانهم غير مقبولي العمل
حتى يرى الايمان منهم قد حصل

وليس الفرض ، من الحج ، مثلا ، الى الديار الطاهرة ، هو تقديم القرابين والعتائر والذبائح ، واظهار ضخامة المادة ، وفخامة المظهر ، واقتناء الذخائر والاعلاق ، والتحف والنفائس ، فذلك كله لا يصل الى الله ... وانما غرضه الوحيد ، وهدفه الاوحد ، يتجلى في توثيق عرى الاخوة والتضامن بين ابناء الامة الاسلامية ، وانعاش العواطف الصالحة التي طغت عليها المنافع ، وصلة القرابة الواشجة التي قطعت بينها المطامع ، وربط الصلات الشابكة التي اوهتها الجفوة ، وامضها الاعراض .

فشعائر الاسلام اشعاعات من نور العقيدة الاسلامية ، انعكس صفاؤها وسموها عن القيود الزمنية والمكانية ، ونقاؤها من اي مظهر من مظاهر الشرك على جميع العبادات ، فكان الحج في الاسلام ذروة هذه الطهارة وقمة النظافة فيها وصدق ربي حيث قال : « لن ينال الله لحومها ... ولا دماؤها .. ولكن يناله التقوى منكم » .

وما من شك في أن وفود الحجيج من المسلمين، يجعلون امام مهامهم رفع كلمة الله ، وحماية شريعته، والذياذ عن حدوده واركانه ، بغية اقامة مجتمع اسلامي صحيح ، قوي متماسك ، مسدد الخطى ، محفوظ القوى ، لا يوجهه الا الحق ، ولا يهديه الا الخلق ، ولا يحكمه الا الله الذي له الدين الخالص ...

هل عرف الوقف في الجاهلية ؟

لقد ذكر بعض الائمة ان اهل الجاهلية من العرب كانوا لا يعرفون الوقف ... ولعل اصل ذلك للامام الشافعي (ت 204 هـ) الذي قال : « الوقف من الامور التي اختص بها الاسلام ، ولم يبلغني ان الجاهلية وقفوا دارا او ارضا » ، فالوقف من خصائص هذه الامة المحمدية ، كما اشار اليه الاسلام الشافعي، ونقله في الفتح ، واقره . قال : « ولا نعرف ان ذلك وقع في الجاهلية » ، ويوحي ظاهر كلام الامام الشافعي بأن المعنى الاجمالي للاحباس لم يكن معروفا في الامم التي سبقت الاسلام ، الا ان الامر ليس كذلك ، فان الاحباس كانت معروفة عند الاقدمين قبل الاسلام ، وهي معروفة عند غير المسلمين بعد الاسلام ، وان لم تسم بهذا الاسم (16)، وقال الامام الشافعي ايضا (17) : « حفظنا الصدقات عن عدد كبير من المهاجرين والانصار ... لقد حكى لي عدد كثير من اولادهم واهليهم انهم لم يزالوا يلون صدقاتهم ، حتى ماتوا ، ينقل ذلك العامة منهم ، عن العامة ، لا يختلفون فيه ، وان اكثر ما عندنا بالمدينة ومكة من الصدقات ، فكما وصفت يتصدق بها المسلمون ، من السلف ، وان نقل الحديث بها كالمتكلف » .

وقال ابن حزم : « ان العرب لم تعرف في جاهليتها الحبس » (17 مكرر) ، ولعل الامامين الجليلين يقصدان الوقف الذي يكون غرضه البر والمعروف لوجه الله ، ولذات الخير ، والاحسان ، والا فان العرب عرفت الوقف ، لقول شريح : « جاء محمد صلى الله عليه وسلم بمنع الحبس » لكن هدفه كان يتغيا التباهي والتفاخر ، فالفرق بين الاوقاف قبل الاسلام ، وبينها وبين الوقف عند المسلمين هو ان اوقاف الجاهلية موضوعة لغرض الفخر (18) .

وقد وجه سؤال الى الاستاذ علي الطنطاوي ، بان من غير المسلمين من يبني المستشفيات ، ويقيم

(14) الفرقان : 23 .
(15) ابن كثير : اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : 144 - 145 / ج : 5 ، ط : دار الفكر .
(16) « احكام الوقف في الشريعة الاسلامية » ص : 21 / 1 : الكبيشي : « المنزع اللطيف » في التلميح لمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف » لابن زيدان » ص : 384 / مخطوط بالمكتبة الوطنية - الرباط . تحت رقم : 595 - حرف ج .
(17) كتاب الام » ص 276 / 3 .
(17) مكرر المحلى : ج : 9 » ص : 275 .
(18) « شرح منح الجليل » على مختصر خليل » : محمد احمد عليش (ت 1299 هـ) ج : 3 / 35 .

الملاجيء ، ويكثر من الاحسان ، فكيف لا يثاب عليها في الآخرة ؟ فكان جواب الاستاذ الطنطاوي : « ان ربنا يثيب كل محسن ، يعطيه ما يطلبه ، فمن كان يطلب الآخرة يعطيه ربنا الثواب في الآخرة ، ومن كان هو لا يريد الآخرة ، اذ كان هو نفسه لا يريد الثواب في الآخرة ، وانما يريد ان تذكر الصحف اسمه ، وان يخلد التاريخ ذكره ، وان تقام له التماثيل ، هو لا يريد الآخرة ، هذا الذي اشار اليه ربنا في القرءان لما قال : « ومنهم من يريد الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق » فربنا لا يضيع عمل عامل ... كان ربنا عز وجل يسأل المحسن ، ماذا تريد لاعطيك ؟ ما ذا تريد ؟ فان كان هو نفسه لا يريد الآخرة ، ولا يؤمن بها ، فلماذا تغضب انت ، اذا لم يكن له ثواب في الآخرة (19) .

وقد ذكروا ان اول ما عرف من الوقوف قبل الاسلام في العصر الجاهلي ، الكعبة المشرفة ، ذلك البيت الذي وضع للناس بمكة المباركة ، وفي واد غير ذي زرع ، يقبل الناس اليه من كل صوب وحدب، ويثوبون اليه عند العبادة ، ثم يعودون الى اوطانهم ، وقد طهروا انفسهم من ادران الذنوب والمعاصي (20) .

وقد اهدى ساسان بن بابك من ملوك الفرس للكعبة غزالين من ذهب ، وجواهر وسيوفا ، وكثيرا من الذهب ، ودفن ذلك في زمزم ، ويقال : ان كلاب ابن مرة اول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة لها (21) .

وأول من كسا الكعبة ووقف عليها اسعد ابو كرب ملك حمير ، وذلك قبل الهجرة بقرنين ، وقد كساها الخصف (22) ، والمعافر (23 ، والملاء (24) ، والوصايل (25) ، والعصب (26) ، والمسوح (27) ، والانطاع (28) ، والبرود (29) ، وجعل للكعبة بابا ومفتاحا ، وفي ذلك يقول مفتخرا :

ورد الملك (30) تبع وبنوه
ورثوهم جدودهم والجدودا
اذ جبينا جيادنا من ظفار (31)
ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فاستبحنا بالخيل ملك قباذ (32)
وابن اقلود جاءنا مصفودا
فكسونا البيت الذي حرم اللـ
ـه ملاء معصبا وبرودا
وأقمنا بـه من الشهر عشرا
وجعلنا لبابه اقليدا (33)
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا
وسجدنا عند المقام سجودا
وخرجنا منه الى حيث كنا
ورفعنا لواءنا معقودا (34)

وكانت اول عربية كست الكعبة في الجاهلية نبيلة بنت حباب أم العباس بن عبد المطلب ، كستها الحرير والديباج ، وسبب ذلك انها اضلت إبنها خوارا اخا العباس وجعلت تنشد :

اضللته ابيض لو ذعيا
لم يك لحلوبا ولا دعيا
اضللته أبيض غير خاف
للفتية الغر بني مناف

---

(19) « الشرق الاوسط » ، ع : 1626 / س : 5 / خميس 12 / 5 / 1983 .
(20) دائرة معارف القرن الرابع عشر ، ج : 8 / كلمة « كعب ».
(21) « مرآة الحرمين » ج : 1 / 278 .
(22) الخصف : محركة ، ج : خصفة ، وهي الثوب الغليظ جدا.
(23) المعافر في الاصل : أسم بلد سميت به الثياب المعافرية التي تصنع فيه .
(24) الملاء : ج ملاءة ، وهي ثوب لين رقيق ، نسج واحد ، و قطعة واحدة ، وتسمى الربطة .
(25) الوصايل ، ج وصيلة ، وهي ثوب أحمر مخطط يماني .
(26) العصب : برود يمانية يعصب غزلها اي يشد ، ثم يصبغ بعضه ، وينسج مع غير المصبوغ ، فياتي موشى .
(27) المسوح : ج مسح ، وهو ثوب من الشعر غليظ .
(28) الانطاع : ج نطع ، وهو بساط من الاديم ، أى الجلد .
(29) البرود : ج برد ، وهو ثوب مخطط ، وكساء يلتحف به .
(30) تبع : لقب ملك ملوك الحيرة .
(31) ظفار : مدينة باليمن قريبة من صنعاء ، واطلالها باقية .
(32) قباذ : ابو كسرى .
(33) اقليد : المفتاح .
(34) مرآة الحرمين ج : 1 / 281 .

ثم لعمرو منتهى الاضياف

سن لفهر سنة الايلاف

في القر يوم القر والاصناف

ونذرت ان وجدته لتكسون الكعبة ، فأتاها به رجل من جذام ، فوفت بما نذرت (35) .

وقد ذكر ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون (36) : « ان الامم منذ الجاهلية كانت تعظم البيت ، والملوك تبعث اليه بالاموال والذخائر ، مثل كسرى وغيره ، وقصة الاسياف ، وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم معروفة .

وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها ، سبعين الف اقية من الذهب ، مما كان الملوك يهدون للبيت ، فيها الف دينار ، مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا ، وقال له علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه : «يا رسول الله لقد استعنت بهذا المال على حربك ، فلم يفعل ، ثم ذكر لابي بكر ، فلم يحركه .. هكذا قال الازرقي ».

ولما خرج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله اباهم اسرائيل ، واباه اسحق من قبله ، واقاموا بارض التيه ، امره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحي مقدارها وصفتها ، وهياكلها وتماثيلها ، وان يكون فيها التابوت ، ومائدة بصحافها ، ومنارة بقناديلها ، وان يصنع مذبحا للقربان ، وصف ذلك كله في التوراة اكمل وصف (37) ، فصنع القبة ، ووضع فيها تابوت العهد ، وهو التابوت الذي فيه الالواح المصنوعة عوضا عن الالواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ، ووضع المذابح عندها .. وعهد الله الى موسى بان يكون هرون صاحب القربان (38) ، ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه ، يصلون اليها ، ويتقربون في المذابح امامها ، ويتعرضون للوحي عندها (39) .

وقد ادرك كثير من الاغريق ، مثل الفيلسوف افلاطون ان القرابين هي شيء غير ذي جدوى ، ومضيعة ، ومع ذلك فقد اقتضى زمن طويل قبلها تلاشى هذا التقليد ..

ومعلوم ان الاغريق بنى معابد للآلهة تكريما لها ، وكان ينظر الى المعبد باعتباره مقر الالاه الذي بني المعبد له ... وكانت الطقوس الدينية تقام في المعابد ، وتتخذ شكل مواكب ، واناشيد ، مثل « التراتيل المعروفة » وصلوات ، وخاصة تقديم القرابين (40) التي كانت تشتمل على حيوانات ، وازهار وفاكهة للالاه ، وكانت القرابين معدودة اهم جانب في الطقوس الدينية .. كان الكهنوت في عصر الظلام والوثنية ، يقفون الى جانب الهيكل في واجهة المعبد ، ثم يقدم اليها المتعبدون القربان للتضحية ، وربما كان القربان حملا او خنزيرا ، او عنزا او ثورا ، وكان المعتاد ان يطوق عنقه اكليل من الزهور ..

وقد ذكر الحسن الوزان (41) : « انه يبدو من المؤكد ان افارقة نوميديا وليبيا كانوا يعبدون النجوم والكواكب السيارة ، وكانوا يقدمون لها القرابين .. » وهكذا وجدت ثقافة روحية دينية في

---

(35) ذكر ذلك ابو عبيدة ، ص : 259 / مراة الحرمين 1/282.

(36) المقدمة : ج : 848/3 ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي.

(37) يشير ابن خلدون بذلك الى ما ورد في الاصحاحات : 25 / 26 / 27 من سفر الخروج .

(38) الاصحاح : 28 من سفر الخروج .

(39) مقدمة ابن خلدون : 3 / 849 .

(40) القربان بالضم : ما كانوا يتقربون به الى الله من ذبائح و غيرها . وفي الاصحاح الرابع من سفر التكوين : « ان قابيل قدم من اثمار الارض قربانا للرب ، وقدم هابيل ، ايضا ، من ابكار غنمه ومن سمانها » . وكان العرب في جاهليتهم يقدمون القرابين لاصنامهم ، وكان لبكر ابن وائل صنم يقال له : « عوض » وفيه يقول رشيد بن رميض العنزي :

حلفت بمائرات حول (عوض) وانصاب تركن لدى سعير

و « المائرات » : الدماء الجارية ، وهو ما تشير اليه آية : « وما ذبح على النصب » .
واللفظ مشترك في اللغات السامية ، فهو في العبرية : « قربان » وبالسريانية : « قربانا » واصله في العربية مصدر قرب الشيء قربانا ، ونظير هذا الوزن من المصادر العربية : شكران ، وغفران ، وسلوان .
وقد اخبرت وكالة « فرانس بريس » في منتصف يونيو 1956 حسب مصادر روسية شبه رسمية ، ان طائفة مسيحية ، تعيش بناحية موسكو ، ما تزال تمارس تقديم القرابين البشرية !!! وان سيدة اقدمت على التضحية باحفادها الصغار رغبة في انقاذ روح ابنها الملحد !!!

(41) « وصف افريقيا » للوزان الفاسي ، ص : 77 ، ط : المملكة العربية السعودية .

المغرب القديم ،ايضا ، ظهرت في هيكل « بعل » ومعبد « تانيت » ، وهذه المعابد اوت التفكير الديني الفنيقي الذي تأثر بعدة ديانات قبل ظهور المسيحية بالشرق .. واختلف على بلادهم الانبياء ... وقد عرف البرابرة في عهدهم ، لاول مرة عبادة الكبش ، وعبادة «بعل » و « تانيت » وقدموا القرابين البشرية لتكون لهم معينة على استجلاب رحمة السماء .

والقربان عند علماء اللغة الاسلاميين هو كل ما يتقرب به الى الله ، فليس القربان خاصا بالذبائح ، وان صار ذلك مدلوله في الغالب ولما في معنى القربان من التقرب اطلقت الكلمة على جليس الملك الخاص ، اى المختص به ، وقرابين الملك وزراؤه وخاصته (42) .

والرجل المتدين عند الامم القديمة هو الرجل الذي يتذكر آلهته ويضعها دائما نصب عينيه ، وذلك بتقديم القرابين لها ، بل ان تقديم القرابين كانت ابرز من العبادات العملية كالصلوات ، لان الانسان القديم لم يكن يفهم آنئذ من الحياة الا مفهومها المادي ...

ولا نعرف عن قرابين العرب الجاهليين التي كانوا يقدمونها في اوقات موقوتة شيئا يذكر ، لعدم ورود ذلك في النصوص ، والظاهر ان شهر رجب كان من الاشهر التي تقدم فيها القرابين الى الاصنام عند أهل الحجاز ونجد ..

وكلمة « قربان » قد استعملت وخصصت بهذا المعنى لانها تقرب الى الآلهة .. والعرب كانوا يذبحون ويهدون الى آلهتهم ، ويقدمون القرابين الى اصنامهم ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الامم .

وقد عرف شهر رجب بكثرة ما كان ينحر فيه من ذبائح للاصنام ، فلا بد ان يكون لذلك اصل وسبب ، كان يكون هذا الشهر من الاشهر التي كانت لها حرمة خاصة في الجاهلية القديمة ...

وشهر رجب هو من الاشهر الحرم المعظمة التي لم يكن يحل فيها القتال .

وقد سمي الذبح في هذا الشهر بـ «الترجيب» وقيل للذبائح التي تقدم فيه : « العتائر » ، جمع عتيرة .. وقد عدت العتائر من شعائر الجاهلية ، واطلق بعض علماء اللغة كلمة « العتائر » على ذبح الحيوانات الاليفة ، واطلق لفظ « الناقرة »على ذبح الحيوانات الوحشية ، ويلاحظ ان الاسلام قد اطلق على ذبح الضحايا التي تذبح في الحج « الهدي » وكذلك « الشعائر » ، وقد تكون هذه الكلمات من المصطلحات الجاهلية التي ابقاها الاسلام .. وعرفت العتيرة بـ « الرجبية » عند الجاهليين كذلك ، لانها كانت تذبح في شهر رجب ، فنسبوها اليه ، وعرفت ايام رجب بـ « ايام الترجيب » وورد « ايام ترجيب وتعتار » وقيل للذبائح التي تقدم فيه « النسائك » كذلك (43) .

وقد عقد الامام مسلم في صحيحه بابا بعنوان : « باب الفرع والعتيرة » عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فرع ولا عتيرة » (44) . قال اهل اللغة وغيرهم: الفرع ، ويقال الفرعة بالهاء ، اول النتاج كانوا يذبحونه .. قال الشافعي واصحابه وآخرون : هو اول نتاج البهيمة كانوا يذبحونه ولا يملكونه رجاء البركة في الام وكثرة نسلها . وهكذا فسره كثيرون من اهل اللغة وغيرهم .. وقال كثيرون منهم : هو اول النتاج كانوا يذبحونه لآلهتهم وهي طواغيتهم ، وكذا جاء هذا التفسير في صحيح البخاري وسنن ابي داود .. وقالوا : العتيرة ، ذبيحة كانوا يذبحونها في العشر الاول من رجب ، ويسمونها « الرجبية » .

(42) تـاج العـروس : 1 / 422 / اللسان : 2 / 158 .
(43) تاج العروس : 1 / 266 / اللسان : 1 / 396 / د. جواد علي : ص : 208 / 5 .
(44) صحيح مسلم : ج : 3 / 1564 .
والعتائر : كان العرب في الجاهلية ، اذا طلب أحدهم امرا ، نذر ، لئن ظفر به ، ليذبحن من غنمه في رجب كذا وكذا ...
وفي الحديث : « هل تدرون ما العتيرة ؟ » هي التي يسمونها : « الرجبية » كانوا يذبحون في شهر رجب ذبيحة ، وينسبونها اليه . انظر : اللسان : مادة « رجب » .

فالفرع والفرعة بفتح الراء ، اول نتاج الابل والغنم ، وكان أهل الجاهلية يذبحونه لآلهتهم تبركا وتقربا .. وقيل هو ذبح كان يذبح اذا بلغت الابل ما يتمناه صاحبها . وقيل : بعير كان يذبحه الرجل كل عام اذا بلغت ابله مائة بعير ، فينحر ويأكل الناس ، ولا يذوقه الرجل ، هو ولا أولاده (45) .. وفي امثالهم ما يدل على هذا المعتقد عندهم ، اذ قالوا: « اول الصيد فرع » (46) او « اول الصيد فرع ونصاب » ذلك انهم كانوا يرسلون اول شيء يصيدونه الى آلهتهم تيمنا بذلك .. وقالوا كذلك .. « افرع بالظبي ، وفي المعزى دثر » (47) وافرع بالظبي : ذبحه .. والدثر بفتحتين : الكثرة .. ومعناه : أن معزاه كثيرة ، وهو على الرغم من ذلك يذبح الظبي .. ويضرب المثل لمن له اخوان كثير ، ولكنه يستعين بغيرهم .

وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لانها كما قلنا اسمى مظاهر العبادة في اكثر الاديان ..

وقد تضاءلت كلمة « العتائر » في الاسلام امام كلمة الضحية ، حتى لم يفهم معناها الا الخاصة، شانها في ذلك شان كثير من المصطلحات الدينية الوثنية التي تضاءلت اوافل نجمها . فماتت او تغير مدلولها فصار لها في الاسلام مدلول ديني جديد (48)

هكذا كانت الصلة تقوم بين الانسان وبين الهته قديما على الود والصداقة والتذكر بتقديم النذور والقرابين كما تقوم الصداقة بين الناس على اساس من الود والتقرب والاتصال وتقديم الالطاف والهدايا ايضا ... وبما ان الآلهة كانت اقدر من الانسان ، كان من اللازم على البشر التودد اليها بشتى الطرق لتتذكره فتحن عليه بالبركة والسعد ، وبخير ما يشتهيه ، ويرغب فيه ..

ولما كانت عقلية الانسان القديم ، وعقلية كل بدائي تقوم على فهم لادراك الحسي في الدرجة الاولى، كان للهدايا والنذور والقرابين والشعائر العملية المقام الاول في ديانته ، لانها ناحية ملموسة تراها الاعين ، وتدركها الابصار ، وفيها تضحية تقنع المتدين التقي المتقرب بها الى آلهته ، بانه قد قدم شيئا ثمينا لها ... وانها لذلك سترضى عنه حتما ، لانه قد آثرها على نفسه ، فقدم اليها أعز الاشياء واغلاها .. انها ترضى عنه ، لانه لم ينسها ، ولم يغفل عنها ، ولم يفتر حبه لها ، وسترضى عنه كلما تذكرها ، وقام باداء هذه الواجبات المفروضة او المستحبة لها ، كما يرضى الصديق عن صديقه او السيد عن عبده ..

وكانت في جزيرة العرب معابد واماكن مقدسة كثيرة ، منتشرة في كل مكان ، بل كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الاحيان ، تقرب الناس اليها بتقديم القرابين والنذور ... لبعضها مساحات واسعة قد تكون محيطة بها ، او ملاصقة لها ، او في مواضع بعيدة تحمي للمعابد ، فتكون مواضع « حمى » و « حرم لها » لا يجوز لاحد انتهاك حرمتها ، والاعتداء عليها ... اذا دخل حيوان في داخلها ، وصار بين جدرانها وحدودها عد في ملك الحرم ، ومن اموال المعبد ، فلا يجوز لاصحابه اخذه واستعادته ، ثم لا يجوز ادعاء ملكيتها ، والا تعرض لغضب الكهان والناس ..

وكانت الكعبة اعظم موضع يحج اليه ، وكان فيها مجموعة كبيرة جدا من الاصنام والصور ؛ وللتبرك والتقرب الى هذه الاصنام قصدها الافراد ، وحجت اليها القبائل ... وعلى يمين الداخل الى الكعبة ، جب ، اتخذ خزانة للبيت يلقي فيه ما يهدى الى الكعبة ، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي هبل الصنم الذي كانت قريش تعبده ، ويستقسم عنه بالازلام (49) ، والحفرة التي كانت في جوف البيت بمثابة مكان ترمى فيه الهدايا والنذور والتي تعرف بـ « الغبغب » ..

وتعيش المعابد من الاملاك والاموال التي يخصصها المومنون بها ، ومن النذور والهدايا التي

---

(45) بلوغ الارب : 3 / 39 ـ 40 / واللسان : مادة « فرع » .

(46) مجمع الامثال : 1 / 25 .

(47) مجمع الامثال : 3 / 81 .

(48) « تاريخ العرب قبل الاسلام » ، د. جواد علي ، ص : 232 / 5 .

(49) الازرقي : 27 / 1 .

تقدم اليها .. وقد كان في المعابد مواضع يرمي الزوار فيها ما يجودون به على المعبد، عرفت عند عرب الحجاز، كما قلنا، بـ « الغبغب » وهي عبارة عن حفر في داخل المعبد كانت مكتوبة بغير غطاء يظهر انها من بقايا آبار قديمة كانت تستعمل مذابح للاصنام، تتجمع فيها دماء الذبائح التي تذبح امام الصنم يسيل منها في مجاري الى الخارج ليجف هناك، او انها كانت خزائن حفرت على هذا الشكل لرمي الهدايا فيها .. (50) .

ويتبين انه كانت في العربية الجنوبية ارضون واسعة مسماة بأسماء الآلهة، اجرتها المعابد للرؤساء، او سلمتها الى ايدي « الكبراء » لاستغلالها في مقابل اجر يدفعونه الى المعبد يتفق عليه .. وهذه الارضون هي اوقاف حبست على الآلهة تعرف بـ « وتفم » « وقف »، ومن غلات هذه الاوقاف ومن « العصم » والنذور والهبات الاخرى ينفق على المعابد وعلى رجال الدين ..

ويلاحظ ان اكثر الكتابات التي تتطرق الى قضية ادامة المعابد بترميمها وبتجديدها او بناء معابد جديدة هي من كتاب الحكام والكهان والملوك والكبراء، وقلما نجد فيها اشارة الى قيام رجل من رجال الدين بذلك، مع انهم هم المسؤولون عن المعابد، القائمون بادارتها، وبجمع الاموال باسم الآلهة، وهم المنتفعون باموال الاوقاف (51) .

* * *

وقد اعتقد بعض الباحثين ان الموقوفات المعروفة بوقف خليل الرحمن التي ما زالت ماثلة لحد الآن هي من اوقاف ابينا ابراهيم عليه السلام (52) . وهكذا فاننا نجد عددا من اعمال البر كانت تقام في العصر الجاهلي كحفر بئر زمزم وغيرها .. لكن غرضها كان بقصد التفاخر والمباهات، وحب الظهور، والسمعة والرياء، بل ان العرب كانوا يقفون بعض حيواناتهم ومواشيهم، ويتركونها وقفا للآلهة والكهان، فحرم الاسلام نوع هذا الوقف بقوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب، واكثرهم لا يعقلون .. » (المائدة)، اي ما شرع الله هذه الاشياء، ولا هي عنده وقف او قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعا لهم، وقربة يتقربون بها اليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم .. وكان عمرو بن لحي بن قمعة احد رؤساء خزاعة الدين ولوا البيت بعد جرهم اول من غير دين ابراهيم الخليل، فادخل الاصنام الى الحجاج، ودعا الرعاع من الناس الى عبادتها، والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الانعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الانعام عند قوله تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا ... فقالوا : هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا !! فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله، وما كان لله، فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » .

روى محمد بن اسحق عن ابن هريرة رضي الله عنه انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاكثم بن الجون الخزاعي رضي الله عنه : « يا اكثم، رايت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، فما رايت من رجل اشبه برجل منك به، ولا بك منه، ولقد رايته في الناس يؤذي اهل النار بريح قصبه !! » قال اكثم : « أيضرني شبهه يا رسول الله ؟ .. قال : لا، انك مؤمن، وهو كافر ..

قال شيخ الاسلام ابن تيمية (53) : « هذا من العلم المشهور : ان عمرو بن لحي هو اول من نصب الانصاب حول البيت، ويقال : انه جلبها من البلقاء من ارض الشام، متشبها باهل البلقاء، وهو اول من سيب السائبة، وحمى الحامي، ووصل الوصيلة، فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه رآه يجر قصبة في النار، وهي الامعاء، ومنه سمى القصاب بذلك لانها تشبه القصب » ...

ومعلوم ان العرب قبله كانوا على ملة ابيهم ابراهيم على شريعة التوحيد، والحنيفية السمحة

---

(50) « تاريخ العرب قبل الاسلام »، ص : 181 / 6 .

(51) المصدر السابق : 184 / 5 .

(52) « انفع الوسائل في تجريد المسائل » / « الفتاوي الطرطوسية » : نجم الدين : ابراهيم بن علي بن احمد بن عبد الواحد الطرطوسي : (ت 758 هـ) ط : الشرق ـ مصر 1926 م / 1344 هـ .

(53) « اقتضاء الصراط المستقيم » ص : 114 ـ 115 .

دين ابراهيم ، فتشبهوا بعمر بن لحـــي ... وكان عظيم أهل مكة يومئذ ، لان خزاعة كانوا ولاة البيت قبل قريش ، وكان سائر العرب متشبهين بأهل مكة ، لان فيها بيت الله ، واليها الحج ما زالوا معظمين من زمن ابراهيم عليه السلام ، فتشبه عمرو فمن رآه في الشام ، واستحسن بعقله ما كانوا عليه ، ورأى ان في تحريم ما حرمه الله من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي تعظيما لله دينا » ..

وعمرو بن لحي لم يكن حرم هذه الانعام والحرث تحريما مطلقا على كل احد ، ولكنه جعلهـــا وقفـــا وحبســا على أوليائهم ، وعلى سدنتهـــا والعاكفيـــن عندهـــا ...

وفي سورة الانعام من عند قوله تعالى (54) : « وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والانعام نصيبـــا .. الى قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا اولادهـــم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله .. الى آخـر السورة » ، خطاب مع هؤلاء الضرب ، ولهذا يقول الله تعالى في اثنائها : « سيقول الذين اشركـوا لو شاء الله ، ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » ..

قال ابن تيمية : « ومعلوم ان مبدا التحريم ترك الامور المباحة تدينا ، واصل هذا التدين : هو التشبه بالكبار ، وان لم يقصد المتدين التشبه بهم (55) .

فعمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعي هو الذي سن للعرب تلك الشرائع الخرقاء (55 مكرر) وغير دين الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام ، وكان سيدا شريفا مطاعا في قومه ، يطعم الطعام ، ويحمل المغرم ، وكل ما قال فهو دين متبع لا يعصى ، وهو الذ ي جاء بهبل من أرض الجزيرة ، فجعله في الكعبة، وجعل عنده عشرة اقداح يستقسمون بها ، وفي كل قدح منها كتابة يعملون بما تضمنته ، فكان مكتوبا في احدها : « امرني ربي » وفي آخر : « نهاني » وثالث « غفل » فاذا اراد الرجل امرا ، أو سفرا اخرج هذه الاقداح الثلاثة ، فضرب بها ، فان خرج الاول ، مضى، وان كان الثاني نكص ، وان طلع الثالث ، اعاده الكرة ، حتى يخرج الآمر او الناهي ... اما السبعة الباقية ، فمكتوب على احدها العقل ، وفي ثان : نعـــم ، وفي ثالث : لا ، وفي رابع ، منكم ، وفي خامس من غيركم، وفي سادس : ملصق ، وفي سابع : المياه ... فاذا ارادوا ان يختتنوا غلاما ، او ينكحوا ايما ، او يدفنوا ميتا ، ذهبوا الى هبل بمائة درهم وجزور ، ثم قالـــوا لغاضرة بن حبشية بن سلول بن كعـــب بن عمـــرو الخزاعي الذي اليه امر القدح ، هذه مائة درهـــم وجزور .. ولقد أردنا كذا وكذا .. فاضرب لنا على فلان بن فلان ، فان كان كما قال أهله خرج « الفعل » او « نعم » او « منكم » فما خرج من ذلك انتهوا اليه في انفسهم ، وان خرج : « لا » ضرب على المائة ، فان خرج « منكم » كان منهم وسيطا ، وان خرج « مـــن غيركم » كان حليفا ، وان خرج « ملصق » كان دعيـــا خفيا ، فمكثوا زمانا ، وهم يخلطون حتى جاء الاسلام بتحريم ذلك ، قال تعالى : « حرمت عليكم الميتـــة والدم ... الى قوله تعالى : وان تستقسموا بالازلام، ذلكم فسق » وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمـل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وعمرو بن لحي هذا ، هو الذي غيـــر تلبيـــة ابراهيم ، وهو اول محرف عرفه الفكر العربي ، وكان يلبي على طريقة ابراهيم (56) ، فبينما هو يسير على راحلته في بعض مواسم الحج ، وهو يلبي ، اذ تمثل له ابليس في صورة شيخ نجدي على بعير اصهب ، فسايره ساعة ، ثم لبى ابليس ، فقال : « لبيـــك ، اللهم لبيك » فقال عمرو بن لحي مثل ذلـــك ، فقال ابليس : « لبيك لا شريك لك » فقال عمرو مثلـــه ، فقال ابليس : « الا شريك ، هو لك » فاستنكر ذلك عمرو ، فقال ابليس بعده ما يصلحه : « الا شريك هو لك تملكه ، وما ملك » ، فقال عمرو : ما ارى بهـــذا بأسا .. فما زالت كذلك حتى ردها الاسلام الى مـــا كانت عليه في شريعة ابراهيم : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لـــك والملك ، لا شريك لك » .

---

(54) ســـورة الانعـــام : 136 .
(55) « اقتضاء الصراط المستقيم » ص : 116 .
(55 مكرر) الملل والنحل ، للشهرستانـي ص : 2/233 .ط : دار المعرفـــة ـ بيـــروت .
(56) السيرة النبوية لابن هشام : 1 / 79 ، والاصنـــام لابـــن الكلبي ص : 2 / 54 ، واخبار مكة : 1 / 55 .

لقد قالها عمرو ، وكان في حالة شعورية دينية مرعبة لكنه شعر حقا انه بعد ان رددهـــا ، لا بأس عليه ، فلما نشرها بين الناس ، دانت له العرب ، اى استقامت له وصالح طبقة رجال الديـن الوثنييـن المتنفذة ، ولم تنفع شيئا صيحـات التوحيديـين « الاحناف » ازاء طغيان المد الوثني (57) .

اما الصيغة الاخيرة التي استقر الاسلام عليها ، واوحيت لرسوله فهي : (58) « لبيك اللهم لبيـك لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لـك والملك ، لا شريك لك » .

لقد كان العرب ، قبل الاسلام ، يحبسون المال في غير الاوجه المشروعة ، ويحرمون المستحقين في تركتهم منه ، وهذا ما يفسره الحديث : « لا حبس بعد سورة النساء » اى أوقاف الجاهلية الاربعة التـي تحدثنا عنها آنفا في الآية الكريمة ، وهي :

البحيرة : وهي التي يمنع درها لاجل الطواغيت، فلا يحلبها احد من الناس . .

السائبة : وهي التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء . .

الوصيلة : الناقة البكر التي تبكـر فـي اول انتاجها بانثى ، ثم تثني بانثى ، فكانـوا يسيبونهـا لطواغيتهم . .

وقد روى ابن الازرقي في « اخبار مكـة » ان عمرو بن لحي : هو الذي بحر البحيـرة ، ووصـل الوصيلة ، وحمى الحام ، وسيب السائبة ، ونصـب الاصنام حول الكعبة ، وجاء « بهبل » من هيت مـن ارض الجزيرة ، فنصبه في بعض الكعبة ، فكانـت قريش تستقسم عنده بالازلام » .

وللعلماء في هذه المصطلحات كـلام مهمـا تضارب واختلف ، فانه يوصلنا الى نتيجة هـي ان الجاهليين كانوا يراعون هذه الامور مراعاة شديدة ، ولهم فيها قواعد واحكام ترجع الى تقاليد موروثـة قديمة ، حافظوا عليها ، وظلوا يحافظون عليها الى ان منعها الاسلام واستبدلت بالوقف . . .

حكى ابن اسحاق (59) : « ان اصل حـدوث عبادة الحجر في بلاد العرب ، ان آل اسماعيل عليه السلام لما كثروا حول الحرم ، وضاقت بهم فجـاج مكة ، تفرقوا في النواحي ، واخذوا معهم احجارا من الحرم تبركا بها ، فكان احدهم يضع الحجر في بيته فيطوف ، ويتمسح به ويعظمه ، ثم توالت السنون ، وخلفت الخلوف ، فعبدوا تلك الاحجار ، ثم عبـدوا غيرها ، وذهبت منهم ديانة ابراهيـم ، واسماعيـل عليهما السلام الا يسيرا جدا بقـي فيهـم الى ان صفحهم الاسلا » .

ولما كانت حياة البداوة حياة بسيطـة غيـر معقدة ، تعذر علينا ان نتصور حياة دينية معقدة عند ابناء البادية ، وكل ما يمكن وجوده عندهم هو ما كان له علاقة بمحيطهم ، وبمعيشتهم البسيطة ، فلم يعرف العرب من الطقوس الدينية سوى الصلوات والقرابين والنذور والعتائر والصدقات ، اى الشياه والمواشي التي كان العرب يذبحونها ، تقربا لآلهتهم في شهـر رجب ، وما الى ذلك . . وكل ما عرفه العرب في هذا الشان مما يمكن ان يعد نشاطا هو شعيرة الحج ، اذ يسعون فيها بين الصفا والمروة ، وهذا السعـي ذو اصل تمثيلي . . . فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان هاجر لما تركها ابراهيـم وابنهـا اسماعيل في مكة لم يترك لديها سوى جراب فيه تمر، وسقاء فيه ماء !! . . .

قال الاستاذ المرحوم عبد الوهاب النجار(60) : « لقد جعلت ام اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى نفذ ما في السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يتلوى !! . . فانطلقت كراهية ان تنظر اليه ، فوجدت الصفا اقرب جبال في الارض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي ترى هل تنظر احدا ، فلم تر احدا ، فهبطت من الصفا ، حتـى اذا بلغت الوادي ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي

(57) « المفصل في تاريخ العرب » : 60 / 41 في اسباب ظهور الشـك .
(58) كتـاب « الام » للشافعـي : 2 / 132 .
(59) السيـرة : ج : 8 / 124 .
(60) « قصص الانبيـاء » ص : 105 .

الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم اتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى احدا ، فلم تر احدا ، ففعلت ذلك سبع مرات » . قال ابن عباس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فذلك سعي الناس بيهما .. »

يتضح مما سبق ان السعي بين الصفا والمروة ، وهي شعيرة ، كانت ايام العرب الجاهلية ، وتحديده بسبعة اشواط ، هو تقليد لسعي هاجر ام اسماعيل، بحثا عمن ينقذها وينقذ اسماعيل من العطش ... وهكذا تبقى بعد ذلك شعيرة السعي بين الصفا والمروة أثرا من آثار ديانة ابراهيم عليه السلام ، وليس من آثار الوثنية المعقدة ...

تلك لفتة عابرة الى بعض عادات العرب ، ودياناتها ، واحتفالها بتقديم القرابين والعتائر لآلتها ومعبوداتها اتينا بها في هذه الدراسة الوقفية لنضع « الوقف في الاسلام » في اطاره الصحيح ، ولنقارن الفرق بين الوقوف في مختلف العصور ..

ان تاريخ اديان العرب قبل الاسلام فصل مهم جدا من فصول تاريخ العرب عامة قبل الاسلام وبعدها ، بدونه لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم ، وطريقة معرفة تفكيرهم ، ووجهة نظرهم الى الخالق والكون ، وما هي الوسائل التي تقرب الى معبوداتهم ، زلفى ، ثم الاسباب التي دلت على نزول الوحي ..

وقد الف بعض العلماء مؤلفات خاصة في الاصنام ، وصل الينا منها « كتاب الاصنام » الذي طبع في مصر لابن الكلبي ، وقام بتحقيقه المرحوم احمد زكي باشا ...

وهناك مؤلفات اخرى الفت عن العبادة والديانة في بلاد العرب لم يصل الينا منها الا الاسم .. وممن الف في هذا الموضوع ابو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان ، والجاحظ ، وقد استفاد ياقوت الحموي في كتابه : « معجم البلدان » من كتاب « الاصنام » لابن الكلبي ، ولابن وحشية (ت 296 هـ) كتاب الاصنام (61) .

وقد الف ابو عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع كتابا في اديان العرب وآرائهم ، اسمه : « آراء العرب واديانها » وقف عليه ابن ابي الحديد . واشار الى بعض هفوات رآها فيه (62) .

وللجاحظ مؤلف اسمه : «اديان العرب » استفاد منه ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، كما عند بروكلمان ...

وبعد ، فلقد اقدم في اوائل القرن الماضي بعض المستشرقين الغربيين بعد البحث والاستقصاء الطويل على الكتابة في موضوع معتقدات العرب وعاداتهم ، وعنوا بهذه البحوث ، من هؤلاء : ولهوزن J. Wellhausen . صاحب كتاب: « الوثنية العربية » الذي اعتمد على ما نقله ياقوت الحموي من « كتاب الاصنام » ، ومن غيره ، ذلك لان كتاب الاصنام لم يكن مطبوعا ولا معروفا ايام الف « ولهوزن » كتابه عن الوثنية العربية ، ويعد هذا الكتاب اوسع مؤلف في موضوعه كتبه المستشرقون عن الوثنية العربية ، وكذلك الف في موضوع ديانة العرب ومعتقداتها العالم الفرنسي « كوسان دي برسفال » Coussin de Perceval استاذ العربية في «الكوليج دو فرانس» College de France وصاحب الكتاب الشهير في « تاريخ الادب العربي قبل الاسلام » ، واحد الذين وجهوا عنايتهم الى نشر الكتب العربية والترجمة لها . والذي وضع كتابا في ثلاث مجلدات ، خصص المجلدين ، الاول والثاني منه للعرب قبل الاسلام ، فخرجها تخريجا يدل على معرفة دقيقة ..

اما العرب ، فلم يقدم احد منهم على هذا العمل الا المرحوم محمود شكري الالوسي الذي وضع

(61) «هدية العارفين» : لاسماعيل باشا البغدادي ص : 5/55.
(62) بلوغ الادب : 2 / 308 .

كتاب « بلوغ الارب ، في احوال العرب » (63) في ثلاث مجلدات مطبوع في بغداد، فكان خير كتاب شامل على اكثر ما جاء في الكتب العربية القديمة من اخبار العرب قبل الاسلام وايامهم ، ومشاهيرهم واديانهم واوابدهم وعاداتهم رتبها في ابواب ، وجعل لكل منها فصلا من الفصـــول .

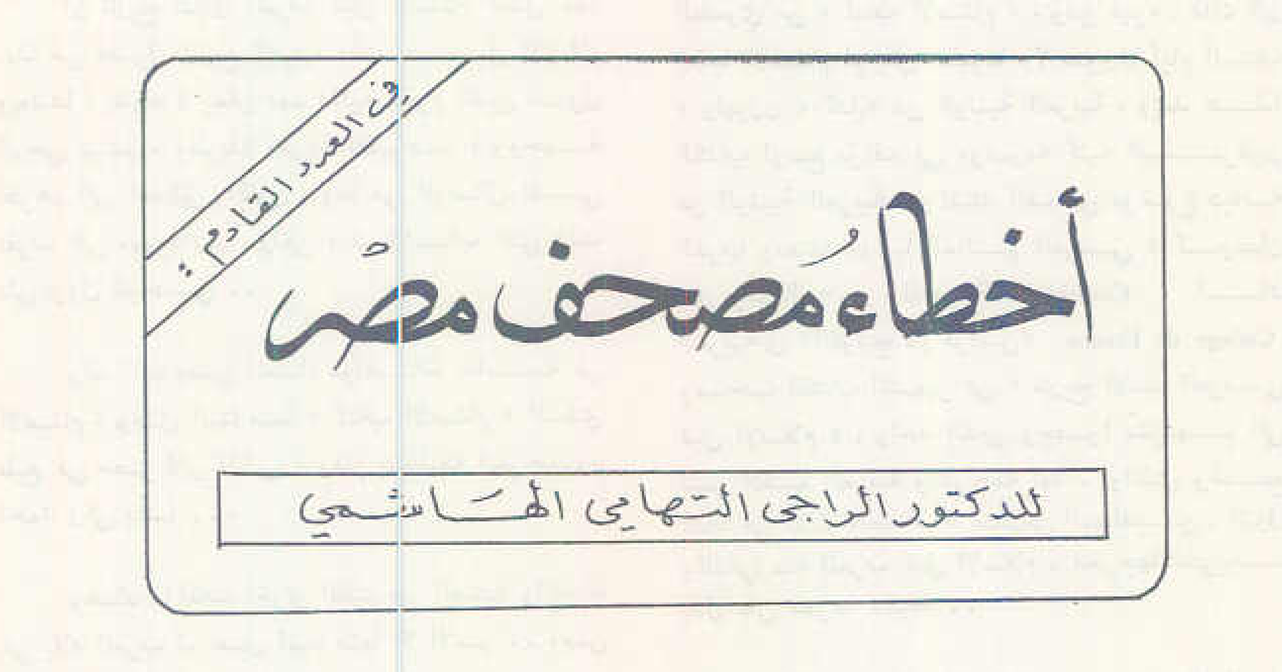
ثم كتب المؤلف الشهير المرحوم جرجي زيدان، كتابا أسماه : « العرب قبل الاسلام » بحث فيه عن أصل العرب وتاريخهم ودولهم ودياناتهم وتمدنهم ..

وقد ظل الكتاب والمحققون يتهيبون التاليــف في تاريخ العرب قبل الاسلام حتى اقــدم الدكتور جواد علي ، فوضع كتابا في ثمانية مجلدات ، سماه : « تاريخ العرب قبل الاسلام » ثم أضاف جزءا آخــر لما تجمعت لديه معلومات كثيرة (64) .

الرباط : محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

(63) « ايضاح المكنون ، في الذيل على كشف الظنون » ص : 194 / 3 .

(64) انظر : « مجلة المجمع العلمي العراقي » عدد : 29 ، في المقال الذي نشره الاستاذ شريف يوسف بعنوان : « الكعبات المقدسة قبـل الاسلام » .



خطبة طارق بن زياد

مصادرها واختلاف نصوصها

للأستاذ عبد العزيز الساوري

اذا نظرنا الى خطبة طارق بن زياد نجد ان كثيرا ممن درسوها قد قدموا بين يدي دراستها اشارات الى التطور الذي اصاب المغرب في ظل الولاة والادارسة ومن جاء بعدهم عددوا مجموعة من العوامل اعتقدوا انها كانت ركيزة هذا التطور . وهذه العوامل هي : (1)

1 – حالة الاستقرار التي سادت مناطق نفوذ الادارسة .

2 – عروبة الادارسة .

3 – انشاء جامع القرويين .

4 – خروج المغاربة في رحلات علمية الى المشرق والقيروان والاندلس وعودتهم الى المغرب .

5 – كثرة الوفود العربية التي قصدت مدينة فاس قادمة اليها من الاندلس والقيروان .

6 – قرب اللهجة البربرية – وقد تأثرت الفينيقية – من اللغة العربية .

7 – عدم مقاومة اللهجة البربرية للغة العربية الا في المناطق الداخلية النائية .

8 – تقدير المغاربة المسلمين للقرءان الكريم واعجابهم بلغته واعجازه .

9 – تهجير افواج من المغاربة في شكل سبي الى المشرق وعودة بعضهم الى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية .

وقد علق الاستاذ عبد المالك الشامي على راي د. عباس الجراري بقوله : « ولو سلمنا جدلا بأثر بعض هذه العوامل على احداث نهضة أدبية ، فاننا نرفض ان يشكل بعضها مؤثرا على تطور الفكر والادب، ذلك لان العامل السادس مثلا بعيد عن الموضوعية والمنطق من عدة وجوه اهمها :

※ ان اللهجة البربرية لم تتأثر بالفينيقية فقط ، بل تأثرت ايضا بالرومانية والوندالية والبيزنطية من خلال مراحل تاريخ المغرب وارتباطاته بالقوى الاجنبية التي حكمته .

(1) الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه : د. عباس الجراري ج 1 ص 50 ، وانظر تفصيل الكلام على هذا الموضوع في كتابه : الزجل في المغرب « القصيدة » (فصل : مراحل التعريب) ابتداء من ص : 85 .

* ان المراكز التجارية التي انشأها الفنيقيون او غيرهم لم تتعمق المغرب ، بل وقفت عند حدود السواحل او ما جاورها ، لذلك لا نرى ان للفينيقية اثر يذكر على لهجة البربر .

* ان الحكم على قرب اللهجة البربرية من العربية ينبغي ان ينطلق من دراسة اللهجة التي كانت موجودة خلال عصر الفتوحات ، لا التي هي موجودة الآن والتي لا شك في قربها من العربية بتأثير القرءان من جهة وتبادل التأثير بين العناصر الاصلية والطارئة .

ونفس الاعتراض يمكن ان يشمل العامل الثامن والتاسع ، حيث لا يمكن الاطمئنان الى مضمونها نظرا لان المغاربة آنذاك لم يكونوا قد بلغوا من المعرفة بالقرءان ما يسمح لهم بالحكم على القرءان وبلاغته ايجابا او سلبا ، كما ان الرحلة الى الشرق لا يمكن ان تعتبر عاملا من عوامل الازدهار اذا لم يصاحبها تجاوب اجتماعي يسمح لها بمد نفوذها العلمي على الخريطة البشرية في المغرب » (2) .

من خلال استعراض هذين القولين : نلاحظ ان القضية التي اثارها د. عباس الجراري في الفصل المتعلق ب (نشأة الادب العربي في المغرب – ظروفها ومظاهرها) ، من كتابه عن (الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه) ، كانت تتصل ببعض العوامل التي ساعدت على توسع حركة التعريب وليس – كما قال الاستاذ عبد المالك الشامي – على احداث نهضة ادبية ، اذ ان توهمه بان تلك العوامل عملت على خلق نهضة للادب في المغرب هو الذي جعله غير مقتنع ببعضها ، والفرق كبير بين الهدفين .

اما تأثر اللهجة البربرية بالفينيقية فيختلف عن تأثرها باللاتينية ، لغة الرومان ، لاسباب عديدة ترجع في حقيقتها الى طبيعة الفينيقية بالقياس الى طبيعة الرومان . واذا رجعنا الى الفصل الذي خصصه د. عباس الجراري – في نفس الكتاب المشار اليه – لـ (وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي) لادركنا مدى التأثير القوي الذي خلفه الوجود الفينيقي في البربر سواء على صعيد الحضارة أو الثقافة ، نظرا لقرابتهم – وهم حميريون – من الفينيقية الذين هم كنعانيون والذين يرتبطون بصلات قوية مع العرب الوافدين .

واما اعجاز القرءان الكريم وسلبه للمغاربة الذين أسلموا ، فيرى د. عباس الجراري ، انه لا مجال لرفضه حتى وهم حديثو عهد بالدين الجديد لان هذا الاعجاز كان متشعب الجوانب ولان ادراك تلك الجوانب – كلها أو بعضها – لا يتوقف على معرفة متعمقة كما قد يظن ؛ علما بان المعرفة لم تكن منعدمة (3) .

(2) مدخل لدراسة الادب المغربي مطبوع رقم : 68 ع ص : 2 – 3 .
(3) من رسالة شخصية الي مؤرخة في 22 فبراير 1982 – (الرباط) .



الوجادات (910 - 921)

للأستاذ عبد القادر زمامة

910 — ضريح أبي جيدة يوم الاربعاء ... !

وجدت في الرحلة العياشية قصيدة تائية مطولة بعث بها أبو سالم من طرابلس الى اصدقائه وشيوخه بفاس جاء فيها : ج 1 ص 69

كأني بصحبي وفر الله جمعهم
عشية يوم الاربعاء في البليدة

يؤمون قبر الشيخ مصباح دهره
أبي جيدة في همة وسكينة

يديرون كاسات المزاح كأنهم
يدور الدياجي بين تلك الاجنحة

فيا ليت شعري هل ترى يذكرونني
هنالك . أم ينسون من بعد فترة

911 — فلا انا ... ولا انا ... !

وجدت في كتاب الدرر البهية ج 2 ص 322 هذه الابيات ، وهي من نظم ابي العباس أحمد بن محمد الفرديس المتوفى سنة 1021 هـ :

فلما انقضى سبعون حان حماميا
واذهلني ماذا الاقي اماميا

وبدل مني كل وصف بضده
واقعدني عما اروم سقاميا

فلا انا حي ارتجى لملمة
ولا انا ميت أكفى هم ملاميا

912 — نسبة بيتي الرقمتين ... !

وجدت في كتاب « كمال العطية » لابي عبد الله محمد بن علي دينية الاندلسي الرباطي ص 78 ، طبعة الرباط ، تحقيقا عن نسبة بيتي الرقمتين الشهيرين :

رات قمر السماء فأذكرتني
ليالي وصلها بالرقمتين

كلانا ناظر قمرا ولكن
رأيت بعينها ورات بعيني

« والرقمتان . اسم موضع . وضمير رات لمحبوبته . وقال بعضهم : ما في البيتين هو من اشارات الفناء والبقاء ووحدة الوجود ... !! ثم ان هذين البيتين نسبا للقاضي عياض ... !! وهو خلاف الصواب . بل ان الصواب انهما لشرف الدين . وزير الملك المظفر صاحب اربل ... !! » .

913 — اللخمي ... وابن مالك ... !

وجدت في اوراق مخطوطة بخط أحد العلماء ما ياتي :

« اكثر ابو الحسن اللخمي من الاقوال الفقهية في مذهب الامام مالك حتى قال بعض المتقدمين :

لقد هتكت قلبي سهام جفونها
كما هتك اللخمي مذهب مالك

وذيله محمد الكفيف الانفاسي من اصحاب ابن غازي بقوله :

وقلدت اذ ذاك الهوى في مرادها
كتقليد أعلام النحاة ، ابن مالك »

914 — ايش ... ؟

وجدت في كتاب تخريج الدلالات السمعية لابي الحسن الخزاعي ص 44 . طبعة القاهرة 1980 م :

« ومن مليح ما وقعت فيه « ايش » من كلام المتأخرين . ما انشده الامام ابو القاسم القشيري رحمه الله تعالى لبعضهم في كتاب « التحبير في اسماء الله الحسنى » :

ملكت نفسي وكنت عبدا
فزال رقي وطاب عيشي

اصبحت ارضى بحكم ربي
وان لم اكن راضيا . فايش »

915 — امير المسلمين ...

وجدت في كتاب : « تخريج الدلالات السمعية » لابي الحسن الخزاعي ص 37 . ط . القاهرة 1980 .

« المسالة الخامسة ، في اول من تسمى بامير المسلمين . وهو يوسف بن تاشفين ، وكان اول من دعاه به المعتمد بن عباد فاستحسن ذلك منه ، ومرت عليه هذه الاسمية الى ان مات ... ! » .

916 — الطبول والعماريات ... !

وجدت في كتاب : « البيان المغرب » لابن عذاري ج 1 ص 272 :

« وفي هذه السنة (414 هـ) اعتلت السيدة ام ملال ، بنت عدة العزيز بالله اياما والامير شرف الدولة يصل اليها في كل يوم عائدا ومفتقدا . فيجلس عندها . ويأذن لرجاله وعبيده ، يدخلون اليها ، ثم ينصرفون . فلما كانت ليلة الخميس منسلخ رجب قبضها الله .. وصلى على جنازتها . بالبنود . والطبول . والعماريات ... !!! » .

917 — مسامير التابوت ... !

وجدت في كتاب « البيان المغرب » لابن عذاري ج 1 ص 270 :

« وفيها (412 هـ) توفيت السيدة زوجة نصير الدولة ، وكفنت فيما لم يذكر ان ملكا من الملوك كفن في مثله ... !

فحكى من حضره من التجار ان قيمته مائة الف دينار . وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجوهر ... ! وكانت جنازة لم ير مثلها ، دفنت بالمهدية . وكانت مسامير التابوت بالفي دينار ... !!! » .

918 — سفينة لمغربي ... !

وجدت في مخطوطة احمد المصطفى ابن طوير الجنة المسماة : « رحلة المنى والمنة » عند كلامه على ابحاره من مدينة العرائش الى المشرق لاداء فريضة الحج ...

« وركبنا في البحر من مدينة العرائش قاصدين « قرن » لان السفينة لرجل فاسي متوطن « بقرن » وهي مدينة من مدائن النصارى ، على شمال البحر في جانب العدوة التي فيها الاندلس ... » .

سيدي محمد بن عباد الصوفي الشهير ...

« وابن عباد له يوم معلوم . وهو يوم الجمعة يجتمع عند ضريحه مشاهير اهل فاس ... تعظيما لذلك الولي القطب . رضي الله عنه ... !!

واما خلوته فهي عندنا في المقصورة التي انزلنا فيها السلطان ... ! »

920 — وباء سنة 749 هـ بالاندلس ..

وجدت في مخطوطة كتاب : « تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد » لمؤلفه ابي جعفر ابن خاتمة :

« وقد كان ظهوره بالمرية اول شهر ربيع الاول من عام 749 هـ بموافقة اول شهر يونيه . فاستمر تمام فصل الربيع . وجميع فصل الصيف والخريف . وطائفة من فصل الشتاء الى تاريخ كتب هذا . وهو منتصف ذي القعدة بموافقة اوائل شهر فبراير ... والى الآن لم ينقطع ... !! لكن مخايل لطف الله بادية ... وتباشير رحمته ظاهرة ... !! » .

الاندلسي وهو من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب هذه القطعة الشعرية التي رواها ابن الخطيب في الاحاطة ج 4 ص 393 بقوله :

« وقال ايضا من قصيدة مهيارية ...

تام طفل النبت في حجر النعامى
لاهتزاز الطل في مهدالخزامى

وسقى الوسمي اغصان النقار
فهوت تلثم أفواه الندامى

كحل الفجر لهم فجر الدجى
وغدا في وجنة الصبح لثاما

تحسب البدر محيا ثملا
قد سقته راحة الصبح مداما

حوله الزهر كؤوس قد غدت
مسكة الليل عليهن ختاما »

فاس : عبد القادر زمامه



الدكتور عبد الله نصيف
أمينا عاما لرابطة العالم الإسلامي

انتخب في مكة المكرمة الدكتور عبد الله نصيف أمينا عاما لرابطة العالم الاسلامي ، خلفا للمرحوم الشيخ محمد علي الحركان .

والامين العام الجديد للرابطة ، عضو في أكاديمية المملكة المغربية وكان يشغل منصب مدير جامعة الملك عبد العزيز بجدة وهو من الشخصيات الاسلامية ذات التكوين الاكاديمي الرفيع ، وشارك في نشاط عدد من الجمعيات والهيئات والمنظمات الاسلامية في العالم الاسلامي .

وبهذه المناسبة وجه السيد الهاشمي الفيلالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية نيابة عن حكومة صاحب الجلالة البرقية التالية الى الامين العام الجديد لرابطة العالم الاسلامي :

سماحة الدكتور السيد عبد الله نصيف الامين العام لرابطة العالم الاسلامي .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ،

علمنا بسرور وانشراح نبأ انتخابكم امينا عاما لرابطة العالم الاسلامي خلفا للمرحوم الشيخ محمد علي الحركان .

وانا اذ نهنئكم على هذه الثقة الغالية التي شرفكم بها المجلس التأسيسي للرابطة والذي يضم خيرة علماء الامة ومفكريها ، لا يسعنا الا ان ندعو لكم بالتوفيق والسداد ، ومتمنين للرابطة في عهدكم موفور النجاح في اداء رسالتها الاسلامية العالمية ، اشعاعا وامتدادا وتوسعا خدمة لاهدافنا المشتركة التي يعمل من اجلها قائدا بلدينا الشقيقين تمكينا للاسلام وتقوية لصفه ونصرة لقضاياه وتوحيدا لكلمة امته العظيمة .

وان وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية في المملكة المغربية لتأمل ان تتسع دائرة تعاونها مع رابطة العالم الاسلامي لما فيه الخير للاسلام والمسلمين .

فنيابة عن حكومة صاحب الجلالة ، واصالة عن نفسي اجدد لكم التهنئة راجيا الله ان يحفظكم ويقويكم ويسدد خطاكم على طريق الحق والهداية .

الهاشمي الفيلالي
وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط ـ المملكة المغربية

إعتذار

للأستاذ الكبير محمد الحلوي

جنـــاب الاخ ... تحيـــة واحترامـــا ...

وبعد ، فالرجاء ان تعتذروا لقراء المجلة عن الاخطاء المطبعية التـــي شوهت بعض ابيات المرثية التي نشرتموها في العدد الماضي عن الفقيد المرحوم الدكالي . وهي أخطاء لا ذنب للآلة فيها التي تنجز ما يقدم لهـا ، وانما هي نتيجة قراءة غير صحيحة للنصوص ، ففي البيت الثاني :

ودموعهـــا جمـــدت على الآفـــاق ؟
والصــــــواب : ودموعها جمـــدت على الآمـــاق ؟

وفي البيت الثالث : في الدارنا تحيـــــة بلا اطـــــواق
والصـــــــواب : في الدار نائحـــــة بلا اطـــــواق

وفـي الرابـــــع : فارقت يـــوم فراقهـــم ارفاقـــــي
والصـــــــواب : فارقت يـــوم فراقهـــم أرماقـــــي

وفي البيـــت 23 : اعزز علـــى بان توشـــد في الثـــرى
والصـــــــواب : اعزز علـــى بان تـــوسد في الثـــرى

دعوة الحق : تأسف لهذه الاخطاء . ومعـــذرة للاستـــاذ الكبيـــر محمد الحلـــــوي .

فهرس العدد 231

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب

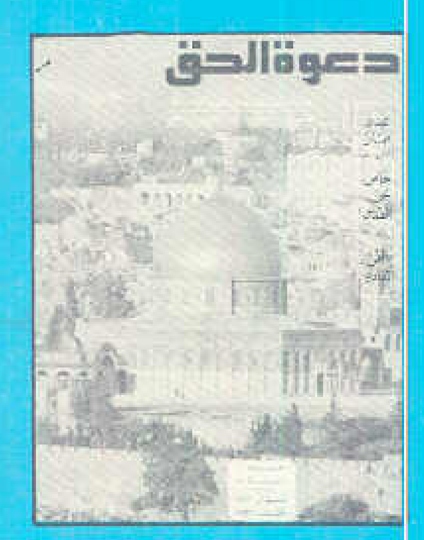
رقم الايداع القانوني 1981/3





















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957